

# ديديه بلوند

ترجمة: أحمد القرملوي

الكتاب  
الحاصل على  
جائزة  
جورج براسان  
2019

## كافيهات

حكايات من مقاهي باريس

الدار المصرية اللبنانية

كافيها٢...٣

بلوند، ديديه.

كافيهات: حكايات من مقاهي باريس / ديديه بلوند،

ترجمة أحمد القرملاوي . - ط 1. - القاهرة:

الدار المصرية اللبنانية، 2021.

128 ص؛ 20 سم.

تدمك: 1 - 335 - 795 - 977 - 978

1- القصص الفرنسية. 1- القصص القصيرة.

أ- القرملاوي، أحمد (مترجم). ب- العنوان. 843

رقم الإيداع: 2021/ 16544

©Mercure de France 2019.

Didier Blonde

CAFÉS, ETC.

©

**الدار المصرية اللبنانية**

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.

تليفون: 202 23910250 +

فاكس: 202 23909618 + - ص. ب 2022

E-mail: info@almasriah.com

www. almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى: 2021 م

تصميم الغلاف الفنان: أحمد عاطف مجاهد

تعبير الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف

وليس بالضرورة أن تعبر عن آراء الدار

جميع الحقوق محفوظة للدار المصرية اللبنانية، ولا يجوز،

بأي صورة من الصور، التوصل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويله أو الاقتباس منه، أو تحويله رقمياً أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحتة عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الدار.

ديديه بلوند

كافيهات...

الكتاب الحاصل على جائزة جورج براسان 2019

ترجمة

أحمد القرملاوي

**الدار المصرية اللبنانية**

إلى مرتين

مكثُ طويلاً خلف كوب الماء المنكَّه بالنعناع

أراجون

## باب دوّار

أدخل إلى المقهى مثلما أفتح رواية؛ أبدأ من منتصفها، ألج إلى الحكاية كيفما اتفق، من منتصف جملة عشوائية. الكلمات الأولى مثل وجوه، بهم تكتمل الصورة. إنها وسيلة المقهى لإثارة فضولي، لكسب ثقتي. أترقب مفاجأة ما، شيئاً قد يجتذبي - أو يُنقّري.

لكل مكان سجل للزوار، يتماشى مع أجوائه، مع طرازه، إيقاعه، كأنه مقطوعة موسيقية قصيرة، ديكوره، ترتيب موائده، إنارته، مُشيع، خافت الإضاءة، أحياناً بارد، الطريقة التي تنتظم بها الأصوات داخل المكان، مع الأشخاص، بحضورهم العابر أو المنتظم، هذا ما يمكنني اكتشافه يوماً بعد يوم (يظل أكثرهم بلا أسماء بالنسبة لي، باستثناء المدير، والنادلة، وربما بعض الرّواد المنتظمين، الذين هم أبطال المقهى الاعتياديون).

مع توالي الساعات، تتقلب الصفحات من تلقاء نفسها؛ وحين أبادلها الأدوار، أقوم بتقليبها شارداً الذهن، كأنما أتصفح كتاباً مُصوّراً، أتوه بين الصفحات، يُغزّل التاريخ ويتحلل بعدد مرات الوصول والمغادرة، بلا بداية ولا نهاية (لكن ماذا عن المرأة التي ترتدي قفازاً وغطاء رأس، تلك التي كانت تحضر يومياً لأجل كأس من الشامبانيا؟ - وكذلك الرجل الذي يرتدي معطف المطر ذا الياقة المرفوعة، والذي كان يتلقّى رسائله - سرّاً - في هذا المقهى، كأنه في استراحة مُلحقة بمكتب بريد؟ تختفي الوجوه المألوفة، وتحل مكانها أخرى، وتتوالى حلقات المسلسل الطويل).

أحياناً، وبمجرد دخولي إلى المكان أخرج من جديد. كلا، أدرك ذلك بكل وضوح، هذه الأجواء لا تناسبني، الضجيج يتجاوز الحد المقبول، الإنارة، الموسيقى، ضوضاء التليفزيون، أحاديث التليفون، لا أجد نفسي هنا، ليس ثمة وجه يستوقفني، تكفيني نظرة واحدة، لنجد مكاناً آخر، هذه الرواية لم تُكتب لأجلي.

## فاتورة

تُعطيني المكان، واليوم والساعة، حتى الدقيقة، مع رقم طاولتي؛ إنه برنامج كامل في صورة مصغرة، تتسلل من تحت طبق الفنجان، مُنكفئة على وجهها. صافي السعر، شامل الضريبة والخدمة، شكرًا لزيارتكم، إلى لقاء قريب. الكاشير في نهاية الكاونتر يُسجّل أثر اللحظة ويمنحني شهادة حضور. أحتفظ بها كعلامة تُحدد صفحة الزمن التي توقفت عندها، كملاحظة من خلف ظهره، كلمتان، ستفيداني بعد سنوات، باهتة قليلاً، كتذكرة لإعادة بناء جدول زيارتي لهذا المكان، لرسم خريطةٍ لتحركاتي وأحلام يقظتي معه. كورقةٍ تطير من مذكرة الأوقات الضائعة.

تحمل اسم المكان مكتوبًا بأحرف كبيرة، لكن اسم النادل، أو النادلة، هو ما أقرأه أولاً، كأنما أستكشف كلمة السر - تلك المكتوبة بحروف صغيرة، تكاد تكون مخفية. ماريو، إيزابيل، إيتيان، جين، كريم، ماتياس، مارينا، تانجي، جيروم... ما لم يختبئ الاسم خلف الأحرف الأولى، أو حتى الوظيفة، مجهلاً وعملياً تمامًا، مثل «النادل رقم 1».

هنا في مقهى «باريس روما»، يكون اسمها مارتا. إنها حديثة العهد بالعمل. سمراء صغيرة، لها من العمر عشرون عامًا، مع بشرة داكنة، شعرها المرفوع برباط مطاطي يصنع حُصلة متمردة أعلى رأسها. ترتدي زي المكان، قميص بولو أرجوانيًا، بنطلونًا ضيقًا ومريلة سوداء. ربما تكون طالبة ذات ساقين طويلتين، تعمل خلال عطلات نهاية الأسبوع لأجل سداد المصروفات. ما لم تكن قد سلكت هذه المهنة فعلاً كمتدربة.

أتابعها فيما تروح وتجيء بين الطاولات، تسجل الطلبات، وتخدم الزبائن، دون استعجال، دون مبالاة واضحة، تبدو كأنما تتمشى، أو تقوم بزيارة، تبدو كأنها تنزلق في حذاء باليه، بالكاد تُسمع خطواتها، غير أنها تبقى مُنتبهةً لما يحدث من حولها. هل أنصت بانتباه لتوصيات المدير؟ وفيما يبدو النُدل الآخرون مرتبكين، تتحرى هي رقصة إيقاعية خاصة ومدروسة، تتسم بالتنقيح والرقّة الشديدة، ولا تمتُّ بصلةً للقواعد المهنية المعتادة. تبدو كإغريقية عريقة تحمل السُّلال. كالآمر الناهي في هذا المكان. انحناءة هينة، التفاتة كأنها لتمثال، ناعمة جدًا، اهتزاز بطيء للقدم المثنية إلى الخلف لتوازن الجسد في لفطة مُعلقة، وشكل مثاليٍّ للذراع العكسية التي تهبط من أعلى، بالتصوير البطيء، لتضع زجاجةً على الطاولة، وكأسًا، بجوار فنجانتي.

تبتسم لي، تمشي مبتعدة، تلتف حول تراس المقهى، صينيتها تحت إبطها، ترفع بقايا طاولة، وتذهب ثانيةً إلى الكاشير، ثم تعود لتطل عليّ بابتسامة جديدة. تدرك أن النظرات تتبّعها، فلا تُلقي إليها بالاً، تتأمل خصرها الضيق، رديها، اللذين تؤرجحهما بخفة. صدرها مفلطح قليلاً. ثمة غمازتان في تجويف الوجنتين. ربما تستمتع بكل ما يحدث هنا.

مارتا، اسم يناسبها، أكرر ذلك لنفسني في حديث داخلي، يجعلني أرغب في معرفة المزيد. وكأنما صرت أملك سُلطة عليها، سُلطة أن أراها دون أن تراني. تمنح نفسها، قاطعةً نصف الطريق. تأتي وقد خلعت، جزئياً فقط، زيتها الرسمي. هاتان العينان، تلك الابتسامة، الردفان والساقان لشبابية صغيرة تُدعى مارتا. يمكنني أن ألّوح إليها، أن أستدعيها لتأتي إليّ، أن أقلب اسمها بداخل رأسي حتى أراها على نحو أفضل، حتى أجعل السعادة تمتد لوقت أطول، أن أجعلها تتكلم فيما أنصت للكنتها الخفيفة التي يصعب تحديدها، فيما لا أزال متخفياً خلف هويتي المستترة.

غير أن هذا التواطؤ الصامت ليس إلا وهمًا. لا يمكن اختصار الأمر في مجرّد اسم أول، لا يمكن الوثوق فيه، يمكن استبداله بكل بساطة، أقل كشفًا مما قد يبدو عليه، ولا يصل إلا لتقريب زائف. هل أنا المقصود به - أم مدير المقهى، لعمل الحسابات بشكل أكثر دقة في نهاية اليوم؟ أما عني أنا، فلا تعرف النادلة أي شيء. اليوم، أنا زبون «الطاولة رقم 405» في أسفل المقهى. تُصنّع العروض في اتجاه واحد فحسب.

إنها تُصلح بهدوء تام رباط الشعر أمام المرآة، تحاول، دون نجاح كبير، أن تُخفي تمرّد حُصلة الشعر التي تعلق رأسها، تتمهل لبعض الوقت، ترمق نفسها، يبدو عليها الإعجاب بما تراه، تكوّر شفيتها، تشدّ عقدة رباط المربلة خلف ظهرها، قبل أن تعود إليّ بباقي النقود. ابتسامة إضافية أخيرة.

لن أسألها متى تُنهي عملها. عندها ستعود امرأة كغيرها من النساء، ستفقد هي هالة القداسة والأداء التمثيلي، وأفقد أنا ميزة التخفي.

## كوب قهوة طويل

يوضع فنجان القهوة في وسط الطاولة. آخذ وقتي. أركز تفكيري، قبل أن أشرع في هذا الطقس غير المقدس. أدور الفنجان بأناملي، بنعومة وخفة، حتى تجد أذنه مكانها على وجه الدقة، على الجانب الفنجان، في محوره بالتحديد، فئضاعف استداراته وتصنع شكله النهائي. أضع جانبًا مكعب السكر المغطى في غلافه الورقي، وأيضًا ملعقة التقليل، إذ لا فائدة منها بدون سكر، لأختبر بعدها هذا العمل الفني سريع الزوال، طبيعة ساكنة أو سابقة التحضير، تتكشف قليلًا في إبداء رزانتها، تتبسط بعض الشيء. ليس الصواب أن أزعج هذه الخطوط الفنية بهوس الوصول إلى الكمال الهندسي. هذه الأشكال تبدو رقيقة، مستديرة، ناعمة، تشتعل من داخل طبق الفنجان، تتفتح مثل بتلات الزهور، فتمنح اللوحة اتزانها. إنها زهرة صلبة من البورسلين، تتعلق بها خيوط من النور. بالأبيض والأسود.

أتمهل. أتأمل فيه. أفصله ببطء عن قاعدته. أترك الحرارة تنساب لراحة يدي التي تلامسه. أذنيه من شفتي، أتحكم في أي حركة محتملة قد تصدر عني، وأستنشق عطره. تغطي السطح رغو رقيقة، تتشبه بحافة الفنجان من الداخل، تتمدد، تنحل، ترسم أشكالاً غريبة دائمة التحول، منظر من الطبيعة، أو مخلوقات عجائبية، تنانين، منحدرات صخرية، سماوات، قيعان بلا قرار، حطام سفن - تندلع الفقاعات الصغيرة الحالمة في صمت تام، واحدة فواحدة. يبيتحيل اللون الأسود إلى البني. ينجلي كما المرآة. ما الذي أستطيع فك رموزه الآن؟ إنه الغرور، ربما، غرور السعادة العابرة، التي سرعان ما تتلاشى في وقت قصير. أفني ذاتي في تأمل المشهد.

السائل الساخن، الأسود، المر، الذي أحتسيه في حسوات صغيرة، مناسب جدًا لإيقاظ ضميري.

## كوب الماء

إنه صغير، خام، عادي جدًّا، مجرد زجاج أبيض شفاف، منقوش بأضلاع تُشبه الثَّيَّات الطويلة، أبتلع الماء في جرعة واحدة. يترك الكوب بلا بساطًا على سطح الطاولة. ليس ثمة ما هو أكثر منه تواضعًا، ما هو أكثر خِفةً، وعُزِّيًّا، إنه بلا تاريخٍ بكل وضوح، يُقدِّم دون أية إضافات. القليل من اللون الجيري يبدأ في التكتُّف بداخل الكوب، ويرسم دموعًا قليلةً على حواجه. متى فرغ قاع الكوب، يشرع في الرقص أمام عينيّ، في شفافية، فأرى الديكور من حولي وقد بدأ يدور، يتكسر ويصير شائهاً، كأنما أراه عبر عدسات الكليدوسكوب. يُحرِّضني على اللعب.

الماء من الصنبور. إنه مستساغ في باريس (لا أشرب سواه). لا لون له، لا رائحة، لا طعم، حقيقةً كما يقول التعريف. يجعلك تُعيد اكتشاف مذاق الماء، الذي عادةً ما يُفقد في عمر الطفولة، كما يُفقد مذاق الطبيعة، الذي نادراً ما نخيِّبره نحن سُكان المدن. شعورٌ بالظجاجة، بالنقاوة التي تتخللك، التي تُخلصك من قلقك ومخاوفك، تمنحك مزاجاً رائعاً دون أن تعرف السبب، هكذا بمنتهى البساطة. تستطيع أن تشعر بوجودك. جدولٍ مائيٍ نحيل يسيل داخل حلقك، يزداد صفاءً، مثله مثل أفكارك. تعود إليك لعتك، قصورك التي تهدّمت. يهمس الجدول لأذُنك، من منبعه البلوريّ. تتنفس الآن بشكل أفضل. ثمة شعور بالرفاه. بالخفة. لا تُصِرّ. إنها معجزة يومية صغيرة، طُوع أناملك.

تأتي برفقة فنجان القهوة، كإضافة متممة، أو كمقدمة ضرورية، لكي تمنح رائحة القهوة التقدير المناسب، لكن، على عكس الفكرة الواضحة، لا يحدث ذلك بشكل تلقائي، بل يجب أن تهتم بالمطالبة به. إن لك حقاً فيه. يمكنك أن تحصل عليه بالمجان عند الكاونتر، وأن تُمضي ساعةً في احتسائه، ساعتك حول معصمك، كما يُنص القانون، ولك أن تنال نفس الاحترام كما لو أنك طلبت كأساً من الشمبانيا (بشرط ألا تتردد كثيراً على نفس المكان).

إنه نصيب المرء الفقير. ثمة راحة ما في معرفة أنه لا زال هناك مكان تستطيع فيه أن تحصل على السعادة بهذه البساطة، دون مقابل، ولا غش، دون اعتبارٍ للأرباح.

## «وبالنسبة إليك، كيف يكون؟»

هل تُفضِّل الشاي أم القهوة؟ البيرة أم النبيذ؟ مياهًا عادية أم فوارة؟

هل تُفضِّل الجلوس في التراس، أم عند الكاونتر، أو في الصالة؟ «عند  
الواجهة الزجاجية» أم عند الطاولة التي في الخلفية؟

كيف تُنادي النادل؟ «يا ولد!»، «أيها السيد!»، «لو سمحت»، بيدي مرفوعة؟  
بصوت عالٍ أم بهدوء؟ هل تنتظر مروره من أمامك؟ ماذا عن النادلة، هل  
هي «يا أنسة»؟

هل تقرأ الجريدة؟ أم كتابًا؟ أم تستطلع هاتفك المحمول؟ هل تُرد حين  
تتصل بك؟ أم تُفضِّل الشرود في أحلامك؟

هل لديك لقاء غرامي - من ذا الذي شق قلب حياتك؟

هل تأتي من آنٍ لآخر لمشاهدة مباراة في كرة القدم؟

متى كانت آخر مرة تأتي فيها لمقهى ما؟ اليوم؟ البارحة؟ خلال هذا  
الأسبوع؟ الشهر الماضي؟ منذ ما يزيد عن السنة؟

كم من الوقت تمضي هناك في المعتاد؟ أقل من نصف ساعة؟ في حدود  
الساعة؟ ساعتين أو أكثر؟

هل سبق وأن غادرت المكان دون أن تسوّي حساب طلباتك؟

## كرسي أم كنبه؟

لم تُعطيني أية خيارات، ارتمت رأسًا على الكنبه، وأطلقت تنهيدة ارتياح. فاتخذت مكاني على الكرسي.

كانت مواجهة غير متوازنة من بدايتها. غاصت هي في الكنبه، ومالت إلى الخلف - الفراء وثير، خاصة حين يكون مُستهلكًا ومُهترئًا، هذا ما يجعله أكثر راحة - تأخذ راحتها، تُمدد أطرافها، تضع حاجياتها إلى جوارها، تمسح الصالة بنظرة سريعة، من خلف ظهري، تومئ إلى النادلة، تلك التي لا يمكنني رؤيتها. تستفيد تمامًا من موضع جلوسها، تسيطر على المكان. أبقى منتصبًا على الكرسي، كأنني أجلس فوق مقعد ساخن، يابس قليلًا، محرومًا من معرفة ما يجري خارج مجال رؤيتي ويستحوذ على انتباهها لهذه الدرجة. ينحصر مجال رؤيتي في وجهها المقابل لي، في الطاولة التي نجلس إليها، في الحائط الخلفي، في المطبوعات المعلقة عليه، فوق رأسها مباشرة.

هل تعكس هذه الوضعية طبيعة علاقتنا، المزاج المسيطر علينا في هذه اللحظة، علاقتنا مع العالم، اختيارنا الوجودي، أم أنها أصول اللياقة البائدة التي تمنح النساء - وكذلك الأطفال - حق الجلوس على الكنبه؟

حين نضرب موعدًا للقاء، آخذ احتياطاتي حتى أصل مبكرًا، حتى أستقر على الجانب الصحيح.

ثمة سيدتان مُسَيَّتان، تجلسان على مبعده مني، أرى جانب وجهيهما فقط، فيما ألوي عنقي حتى تُديرا رأسيهما، لقد أنهيا هذه المسألة منذ مدة طويلة. تتشاركان الكنبه بالتساوي، جنبًا إلى جنب. تاتيان هنا كل يوم، تجلسان في الصف الأمامي، لأجل الفُرجة على المكان. متبرجتان، مجعدتا الشعر، بوجنات أرجوانية، وشفاه حمراء زاهية، قد تكونا أختين، أو توأمتين من فرط ما حُشرتا معًا - قبالتهم كاسا بيرة كبيرتان، من نوع «سيريوه». هما الآن في قلب المشهد،

لا يفوتهما شيء مما يحدث في داخل الصالة، بنبرة خافتة، تُعلِّقان على الأحداث بما يُضفي عليها المزيد من الرونق. إنه أقصى ما تستطيعانه من ضوضاء.

ربما كان عليّ أن أُحذِّرها. هذه الصديقة لا تعرف بأني أعاني عقدة آل كابوني. لن تعرف أبدًا ما يمكن أن يحدث خلف ظهرك. إلزم جانب الكنبه، على الدوام، حتى يُبقي ظهرك لصق الحائط.



## على الكاونتر

علينا أن نتشارك فيه. في أوقات الذروة، أضطر لأن أقطع طريقي حتى أصل إليه، أن أرسمه، مادًّا ذراعي، بصعوبة بالغة. أتنازل أحيانًا عن الوصول إليه. ثمة مَنْ يُضَيِّقُونَ الخناق على مرفقيّ، على كتفيّ. الكلمات مختصرة، مُقاطعة، تدور فيما بيننا، عادةً ما أتخطى دوري، تترد الكلمات من شخصٍ لآخر، أو تضيع في الصخب، تحت نظر مدير المقهى أو أحد النُّدُل، الثابت في مكانه، قليل الكلام، الذي نتَّخذه شاهدًا على ما يحدث عند ماكينة البيرة أو إعداد القهوة، قلب المكان النابض بحرارته. هنا نأتي لنلتقط الأخبار، ونُعلق بالكلمات الأكثر حدَرًا على ما يدور اليوم. ليس مكانًا للخصوصية، بل لخليط متسرِّع ومرتبك من المعاملات.

أحيانًا أقابل البعض هنا. مُقابلات لا تعُدُّ بشيء. لقاءات بلا مستقبل. إنه مكان المجموعة، أشباه يصعب التفرقة بينهم، أخلاط اجتماعية، من كل لون، حيث تجد بين لحظة وأخرى شخصيات من أفلام كلود سوتيه، فنسان، فرانسوا، بول والآخرين (في فيلم «عدة أيام برفقتي»، نراه هو بنفسه، في قلب محادثة ما، مستندًا إلى البار، في سبيله لتوجيه الممثلين. أي صانع أفلام آخر سيعرف على وجه الدقة تلك التحركات، ذلك الترحال، من طاولة الكاونتر، المزيج، الفوضويّ، صوب طاولةٍ في الصالة، لأجل حديث جانبي أكثر تحفظًا؟ - مكانان داخل نفس الصالة، لكلٍ منهما سجله الخاص).

أبتلع سريعًا قهوة الصباح، لكي تُساعدني في الخروج من ذاتي وإعادة اتصالي مع الأحياء. بعد الظهر، يجتمع عمّال موقع البناء المجاور مُرتدين ملابسهم المُملّخة بالملاط، بالأصباغ أو الوحل، مع موظفي المكاتب، بربطات العنق المحلولة، والسترات المعلقة فوق الأكتاف. أبدًا لا نكون أكثر قُربًا من الآخرين على هذا النحو. آخر النهار للعدائين الصغار، ببشرة بيضاء تكرارية، يُفرجون عن المزيد من الكلمات لأجل مراجعة اليوم، لأجل التحوُّل القادم، في المساء، تصير المراجعة للحياة بأكملها.

## جرائد

مرصوصة عند نهاية الكاونتر، أو مُعلَّقة في شماعة معدنية قُرب السلم الهابط إلى الحمام. يعتبرها رواد المقهى المعتادون حكرًا لهم، يتنازلون عنها لبعضهم البعض، أو يتبادلونها فيما بينهم كأنها ملكٌ خالص لهم. ليبراسيون، لو كيب، ليزيكو، لو فيجارو... لكل منها روايتها «الحقيقية» لما يحدث اليوم. أقطع الطريق أخيرًا على لو باريزيان حالما يُطلق سراحها أحد الرواد المعتادين.

اليوم، الأربعاء، 13 من سبتمبر، 2017. كيف حال العالم؟ إعصار إيرما: يواصل إيمانويل ماكرون زيارته لجزر الهند الغربية. بين التصريحات والكاريكاتورات: ما هي الموازنة؟ باريس تفوز بتنظيم الألعاب الأولمبية 2024: دموع أن إيدالجو بعد إعلان نتائج التصويت. عودة الدراسة: «بالنسبة لابنتي، يُعدُّ الذهاب إلى المدرسة من أسباب سعادتها». رجال الإطفاء يتدخَّلون لإنقاذ أصعب طالب جامعي حُشر في مقعده. نواة المشمش: احترسوا من تسمُّم مادة السيانيد. ناربون: شاهد عيان على الحادث، استطاع العامل أن يستعيد أصابع الضحية. تولوز: بحماس زائد، يُصيب ثلاثة من المارة وضابطي شرطة فيما يصيح: «الله أكبر!». بيزيه: يُتلف سيارة جاره ثم ينتحر تاركًا له شيكًا مصرفيًا يفي بإصلاحها. صحة نفسية: اختيارك أن تكون نباتيًا يزيد من مخاطر الإصابة بالاكئاب. السوق العقارية: تم تجديد العمل بالقروض بدون فوائد مع خفض قيمها. كأس ديفيز: البلوز سيلعبون في الملاعب المفتوحة. سينما: دُعاة المساواة الجنسية ليسوا على وفاق تام مع الأدب الفرنسي. بدء انطلاق العروض السينمائية يوم الأربعاء: فيلم المعضلة لميشيل أزانافيسي. سنواتنا الصاخبة لأندريه تشيني. مترو باريس: مصاعد محطة أبس تعود قريبًا إلى الخدمة. قضية جريجوري: مارسيل چاكوب على حافة الهاوية، يقول محاميه. التوقعات الجوية: غيوم فوق إقليم إيل دو فرانس شماليّ فرنسا. وفيات: هل أعرف أحدهم؟ أنتبه أكثر فأكثر إلى التواريخ، إلى الأعمار، لم يحن دوري بعد. أبراج: إنهم يتحدثون عني، دون إصرار شديد. برج الأسد، العشر درجات الفلكية الأخيرة، تترك لك الكواكب صفحة بيضاء لتكتب فيها كل ما تتمناه. هل أتعرف على نفسي في هذه الأخبار؟ أنظر لجيراني، وأقول لنفسي إننا جميعًا نعيش بين مؤشر البورصة CAC 40 (5127 نقطة، بارتفاع بنسبة 16%) وبين البرنامج التلفزيوني في هذا المساء (عقول إجرامية، مسلسل يُعرض على قناة TF1. لغز فرانسيس بيكون، فيلم وثائقي يُعرض على قناة Arte. كرة قدم: دوري رابطة الأبطال، ليزيج في مواجهة موناكو، على قناة Canal+).

أضيف كلمة في لعبة الكلمات المتقاطعة نصف المملوءة بخطوط مختلفة  
(سبعة أفقي. حيث تكون، من ثلاثة حروف. «هنا»)

أتذكر حدوث ذلك في مقهى «أوروبا»، فيما أقرأ في صحيفة  
لو سيكل، أمام قدح من البيرة، حيث عرفتُ أن فيكتور هوجو، خلال رحلته  
برفقة جوليت درويه، علم أن ابنته ليوبولدين غرقت قبل خمسة أيام في نهر  
السين. كان عمرها تسعة عشر عامًا).

## التواليات

تختبئ، كما لو أنها أماكن سرّية، أو سيئة السمعة، نحتاج لأن نسأل عن كيفية الوصول إليها حتى نجدها، نستفسر من النّذل. دائماً ما تكون الإجابة «في الخلف»، «في البدروم»، أحياناً «فوق». لا مفر من الذهاب إليه من وقت لآخر، كثيراً ما نكون قد وصلنا للتو، بحاجة لأن نحزّر أرواحنا، أحياناً قبل أن نغادر مباشرةً، على سبيل الاحتراز. ستهبط السُّلم بقليل من التخوف. رجال. سيدات. برجاء ترك المكان نظيفاً كما وجدته عند دخولك. بعض الرسومات على الجدران، مصنوعة بخيال فقير، لكنها صعبة الإزالة. الأعلى مخصّصٌ للحياة الاجتماعية، المصقولة، المتكثّمة؛ الأسفل للاحترازات الصحية، للحياة العضوية، لقرقرة البطون، لحياة الكواليس، وما خفي منها. نبول، كاتمي الأنفاس، نغسل أيدينا بأطراف أصابعنا، متحاشين النظرات، نُعيد وضع المساحيق، حتى نعود سريعاً للأعلى بالهيئة اللائقة، فنستنشق الهواء الطلق. تُرى هل قمنا ببعض المعاملات السرية التافهة؟ نخاطر بلقاء شخص سيئ. أو بدخول مخبأ للمخدرات المخفّية في السقف المستعار أو خلف صندوق المرحاض؟

دون أن تطأ أقدامنا هذا المكان، يحكي لنا جان أوستاش في فيلم من جزأين («وثيقة»، «حكاية خيالية») نفس «التاريخ القدر» للتلصص على الآخرين (تقع هذه الأحداث في محطة مترو «لاموت بيكيه جرينيل»، لكنه لا يُفصح عن اسم المقهى بالتحديد). تُقب محفور أسفل باب حمام السيدات يمنح زاوية رؤية رائعة للرجال المهممين، فيقومون بإفشاء الخبر السعيد، فيصير موكباً. الدخول بالمجان، الوضع، في مستوى الأرض، يمنح القليل من الراحة. غير أنّ المُشاهد عبر الثقب، المحبّط والمحروم، لا يرى مجرد نقاش في الصالون بين أشخاص محترمين).

على نحو مشابه، كان هناك في وقت مضى كابينة تليفون - تُحجز للزبائن. «هيا اذهب، وسأقوم بتوصيل بالخط». أو تليفون عمومي، يعمل بقطع معدنية، نقوم بشرائها من الكاشير قبل المغادرة. (كيف تتأمل هذه المقاربة؟ نفس المساحة الضيقة، قد تكون. نكون هناك بمفردنا، محبوسين، في مأمن من الأعين والأذان المتطوّلة. في حالة من نفاذ الصبر، مضطربين في أغلب الأحيان للوقوف في طابورٍ للانتظار، حتى يخلو المكان). لطالما صنعت منه سينما الأبيض والأسود موضعاً للأحداث المثيرة - تتعلق الحياة في بعض الأحيان بخيط رفيع ليس إلا - أجهز عليه اختراع الهاتف المحمول. (اختفت أيضاً لعبة الكرة والدبابيس، والبياردو، والبيبي فوت، والصندوق

الموسيقى، ومضمار 421، ولعبة رمي السهام، ولعبة الداما، والشطرنج والكوتشينة والعديد من أسس الدراما. بإمكاننا أن نتحسر عليها، أو أن نقول إن صالة المقهى صارت على درجةٍ من النقاء، تجعلها تقتصر فقط على ما صُنِعَتْ لأجله، مكان لتبادل الكلمات، إضافةً لما يجلبه الرواد عند حضورهم إلى المكان، قطعةً من تاريخهم الشخصي).

ماريو، نادل مقهى «باريس روما»، يقوم بحماية الزبائن الذين ينزلون السلم في طريقهم إلى التواليت. «حاذروا من الكلب. إنه سيئ المزاج اليوم. أعطوه بعض السكر، إنه يجعله أكثر هدوءًا». عندها تتردد في النزول.

## المفقودات

في الخامس والعشرين من أبريل، سنة 1921، تعرّض جماعة الدادائيين، فيما هم مجتمعون كعادتهم في مقهى «سيرتا»، في الممر المحاذي لمبنى الأوبرا، على محفظة نقود، ملك لأحد جرسونات المقهى، ملأى بالنقود، تحوي إيراد آخر اليوم. بها أكثر من ألف فرنك، هكذا يقولون. نتناقش حتى نصل لقرار. تتباين الآراء. للمسألة بُعدٌ سياسي وأخلاقي. نُعيدُها حيث وجدناها؟ نحتفظ بالنقود؟ نصرفها على الشراب؟ نموّل بها عددًا من المجلة؟ نُجري قرعة عشوائية؟ نُلقِها في سلة المهملات؟ لم يكن النادل صاحب المحفظة بروليتاريًا، بل خادمًا سوقيًا، يا للأسف. فلتسقط الأخلاقيات البرجوازية. لقد تأخر الوقت، والنقاش لا يزال مُستمّرًا، بل صار أكثر سخونة. نُوجّل الجدل إلى المساء التالي، في نفس المكان، ونعهد بالحرز الذي هو موضع الجدل إلى إيلوار - الذي أعاده في النهار التالي لصاحبه سرًا (لكن يبدو أن ورقة من فئة الخمسين فرنكًا كانت ناقصة). يثور غضب بريتون تجاه إيلوار بسبب هذا التصرف، يصطفُ بيكاييا مع بريتون، ويُفجّر هذا الحدث سلسلةً من ردود الفعل التي تنتهي بحلّ الجماعة نهاية الأمر.

يونيو 2017. رجل ثلاثيني، طبقًا لما أفاد به مدير هذا المكان التابع للدائرة رقم 18، لم يعاود المجيء بحثًا عن حقيبه التي نسيها في تراس المقهى (عامدًا، دون شك)، وبداخلها تم اكتشاف - متأخرًا جدًّا - واحد وستين نسخةً من كتاب الرياضيات الخاص بالمرحلة الثانوية (تصنيف ES)، تنتظر التصحيح. تم استدعاء الطلبة لخوض ذات المحنة مرة ثانية.

مارس 2018. عادت امرأة شابة، مضطربة جدًّا، بعد عشر دقائق من مغادرتها مقهى «شمال جنوب» برفقة صديقة: كانت قد نسيت ابنتها، ذات الخمس سنوات (لم يُذكر اسم الطفلة)، والتي انتظرت في هدوء عند الكاونتر، بجوار المدير.

أتذكر ما فقدته في عددٍ من المقاهي: شمسية زرقاء (قابلة للطّي) من ماركة «لونجشامب»؛ لفافة مفتوحة من تبغ «كابورال»؛ جرابًا يحوي نظارة شمسية (بعدساتٍ لتصحيح النظر بقياس محدد، لا يمكن لشخصٍ غيري أن يستعملها)؛ دفترًا مغلقًا بالجلد الأسود مُمتلئ الصفحات (لا يمكن استعماله أيضًا، ولم تتم استعادته، لا زلت أتذكره، هل عليّ فعلاً أن أندم على ضياعه؟ ما الفائدة من كل ذلك؟ آمل ألا يكون أحد قد حصل عليه)؛ قلمًا ذا رأس كرويّ (حبره أسود) من ماركة «فيبر كاسيل» له غطاءً أبيض؛ قلم حبرٍ ثقيلٍ من ماركة «ووترمان» (حبره أزرق)؛ قبة

بَحَّارٍ من ماركة «سينتَ جيمس»؛ ولاءة لا يُعاد ملؤها؛ علبة ضمادات إسفنجية مخروطية ملونة ماركة «كوي»؛ خريطة لباريس طبعة «لانديسنسابل»، «النموذج الذي يستخدمه البوليس المحلي»؛ إلخ. (يمكنني أن أواصل جرد مخزن المتعلقات التي فقدتها، كما نفتش جيوب نزل السجون، أو ربما جثة - وأن أرسم بورتريها ذاتيا لمفقوداتي، بعض متعلقاتي المعتادة. تُرى ماذا تُخبر عني؟)

وجدتُ أيضًا هناك (على الكنب، في تجويف مسند الظهر، أسفل الطاولة، وأيضًا، وهو المكان الأكثر غرابة، فوق الطاولة نفسها في بعض الأحيان): ميدالية ذهبية، أو مطلية بالذهب، بسلسلتها، تلك المحفورة بالأحرف الأولى من اسم نسيته؛ كيس نقود من الجلد الممشط يحوي بعض اليوروهات وتذاكر المترو؛ دفتر طوابع بريد جديدة؛ بطاقة بريدية مُرسلة إلى «ميريام ز.» عليها صورة لكاتدرائية سان مارك في فينيسيا؛ ولاءة من ماركة «زيبو»، كلاسيكية الطراز، بحالة جيدة؛ مشطًا بلاستيكيًا مغلقًا؛ أصبع أحمر شفاه من ماركة «بورچوا»؛ إلخ.

(فكرتُ كثيرًا في «مريام ز.» كم كان عمرها آنذاك؟ ماذا كانت تفعل في ذاك المقهى؟ هل كانت هناك بمفرها؟ هل ذهبت هي كذلك لفينيسيا؟ لماذا لم تكن هناك بصحبة «زاقيه»، الذي وقع إمضاءه على البطاقة؟ لم يأت أحد ليسأل عنها عند الكاونتر حيث تركتها).

قال لي جيروم، في مقهى «أوجوستان»، إنه استرد ذات يوم دُميته المحشوة. لذا فمن الجائز أن ننسى ذربتنا في أي مرحلة عمرية.

## مرايا

طقس كئيب. أدفع الباب بفعل العادة، آتي هنا هربًا من الملل، من المساء ماسخ الطعم. أفتح قوسًا. أحصل على استراحة وجودية قصيرة - كتمهيد لتأمل ميتافيزيقي. المقهى نوع من المختبرات، مركز للفراغ - حيث يمكن لأي شيء أن يجد بدايته. سبورة نظيفة للتفكير.

في وجود هذه المرايا الكبيرة، كنوع من الديكور، مُزَيَّنة بكتاباتٍ بالية تمامًا، تفتح على فضاء آخر، متاهيٍّ، مليء بالقيعان المزدوجة، مثل فضاء قصرٍ من الزجاج والسراب حيث أتوه وسط انعكاساتي. يُحيطونني، يوقعون بي، يرمقونني من طرفٍ خفيٍّ، يُواجهونني بنفسي. أو بصورتي الجانبية. أفاجاً بنفسي على حين غرة، محشورًا في زاوية، مُموَّهًا وسط هذا الديكور كأنني جزء من جدارية، أتردد في التعرف على نفسي. هل هذا أنا بحق؟ ما الذي أفعله هنا؟ تُرى مَنْ أكون؟

## ملاك عابر

يحدث ذلك حين يكون المقهى خاوياً. تقطع النادلة الممر الطويل الذي يتوسط الطاولات المصفوفة على الجانبين حتى تسجل طلبتي. ترتدي الأسود مع الأبيض، ليست صغيرة تمامًا، كما تبدو تعباً. تشرب أولاً، وتجرب ساقها المتيبسة، تتحرك بالتصوير البطيء، تحتك قدمها بالبلاط مع كل خطوة.

الصالة الكبيرة في مقهى «الجنرال لافايت» شبه مهجورة، أنا الزبون الوحيد. المدير لا يتحرك من خلف الكاونتر، يجلس في ثبات فوق كرسي البار، مبرقاً بعينه، عاقداً ذراعيه أمام صدره. كان قد توقف عن قراءة الجريدة الموضوعة أمامه، وغاب تمامًا عما حوله. فيما عادت النادلة لمكانها بجوار الكاشير، وبقيت واقفة، متكئة بمرفقيها على البار. بدت أشبه بخفير متجمد في ديكور يُصوّر حالة انتظار. بلا هدف. الزبائن. العامة. كأنما الحياة قد توقفت. صارت الصالة بأكملها ملكاً لي.

السماء داكنة في الخارج، يعبر المارة فلا أسمع خطوهم، بورتريهات ظلّية بسيطة تمرّ خلف النوافذ، مع ضجيج مكتوم في خلفية مشهد المدينة. المقاعد هي الشيء المرّيب الوحيد في هذا المشهد أمام طاولاتها الملمّعة جيداً، المرايا الكبيرة المعلقة فوق الجدران تُضخم المكان وتزيده اتساعاً، مع إعلانات قديمة تجاوزها الزمن. إشرب جينيس لقوة أشد. شيكولاته لورين. بيرة المريخ. القضبان النحاسية البراقة. الأخشاب اللامعة. الأضواء الباردة. إنه يوم مزيف. لا المدير ولا النادلة يُعيرانني أيّ انتباه. قد يكونان نسياني. لا أقوم بأية حركة حتى لا أخلّ بهذا التوازن الهش. لا أشعر باندماج تدريجيّ مع هذا الديكور، بل أختفي.

برهة قصيرة، أفتطعها من حياتي اليومية حيث أستطيع بكل بساطة، في صمت هذه الصالة الكبيرة الخاوية، أن أستشعر مرور الزمن. كم دقيقة مرّت قبل الظهور المفاجئ لمندوب توصيل الطلبات، الذي وضع ثلاث كارتونات على طاولة الكاونتر، ولجق به بعد برهة قصيرة جماعة من الرجال والنساء الثرثارين واستقروا في قلب الصالة؟ ضحك، وهممة محادثات جانبية. عادت النادلة تنخرط في الحركة، ببطء، قليلاً بقليل ودون تمايل صريح، وما زالت تجر ساقها المتيبسة. كانت تُدعى جيني.

## بؤس

شانتال توماس، التي ترتبط ذكرياتها بما يُطلق عليه «مقاهي الذاكرة»، حيث قضت جُلَّ حياتها تتحدث عن «دُوار الوقت الضائع» الذي ينال منا قليلاً بقليل مع تعاقب السنوات، ومع كثرة ترددنا على مقاهي الذاكرة، وعن «اللذة المريرة» التي نستشعرها هناك.

صور فوتوغرافية لـ«فيرلين»، لـ«ريفيردي»، وأمامهما كأسا شراب الأفسنت، فيما يرمقوننا.

لطالما كتب «ماريو دو ساكارنيرو» في مقاهي المنفى الذي عاشه في باريس، حيث جاء لكي ينتحر نهاية الأمر. في مقهى «ريش»، في مقهى «براسيري أونيفرسيل»، وفي الـ«كاردينال».

يا مقاهي كسلي،

أنتِ اليوم - وبأله من إنجاز! -

كل مجال تحرُّكاتي

وجميع طموحاتي.

فوق حائط مقهى الـ«بريتش بار»، في لشبونة، تتراجع عقارب البندول إلى الوراء. «إنها تعمل جيداً»، هكذا قالت النادلة لـ«برونو جانز»، الهارب من الحياة، في فيلم ألين تانير «المدينة البيضاء»، «العالم يسير بالمقلوب». ما زالت الساعة هناك في المقهى، فوق الباب...

في شارع «السين»، ثمة مقهى يُسمى «في الوقت الضائع».

كل هذه الحياة التي تتلاشى كما الدخان، في كؤوس صغيرة، في أكواب القهوة...

## زيتون وفول سوداني

تبدو لك في سذاجة أغنية لرياض الأطفال. ماء وزيتون. تسال مع فول سوداني. كلمات لإثارة الضحك، لا تعني شيئاً بالتحديد، نفوه بها لمجرد تحريك الشفاه، فاصل موسيقي بين الكولبيات، تُصيبك بدوخة. تُناسب جميع حروف الأبجدية. تضع مذاق الشمس في طبق صغير، في الرمادية التي تسود خلفية المقهى.

زيتون وفول سوداني...

عادةً ما يمنحونا وقتاً لفواتح الشهية. فوندام، مقرمشات، تبصق الحصوة خارج فمك، تقضم ذرة الملح، ما إن تبدأ في التقاطها لا يعود بإمكانك التوقف. تجعلك عطشاً، تُصيب الحكمة حلقك الجاف، إنها إحدى الطرق اللطيفة لإطالة المحادثات، حول اللا شيء، في خفة ومرح، ولإعادة ملء الكؤوس. نأخذ بعضنا البعض في جولة، ثم جولة أخرى. لا حاجة للتعجل، سنبقى في انتظارك. ماء صافي وزيتون. تسال وفول سوداني. بين الأصدقاء.

## الطاولة المنزوية

الصالة ملأى بالزبائن. أنتظر. جالسًا، على كنية الانتظار، في الركن. أتيث هنا لأنني لا أجد ما أقوم به. بالأحرى كي لا أفعل شيئًا. ليس لدي ما أشاهده، بذهن شارذ، أو أسمعه، بالكاد. إحلم. دَعْنِي. الأمر ببساطة: أتيث لأكون موجودًا فقط.

مع كل هؤلاء الناس حول المناضد المجاورة، المحيطين بي، دون أن يرونني. إنهم وحيدون. يجلسون متواجهين أو جنبًا إلى جنب. في جماعات صغيرة. يتحدثون، يقرأون، أو يحلمون، مثلي تمامًا. يدخلون المكان، أو يغادرون. يتحرك النُّدْل من طاولة لأخرى في جَوٍّ يصنعه ضجيجُ المحادثات. تتلاقى في صالة المقهى كل مفردات الحياة، جميعها يتبخر بسرعة، تُظهر نفسها وتُسمع صوتها بصورةٍ خاطفة، بلا ترتيب، في لقطات سريعة.

أترك نفسي شيئًا فشيئًا أنساب مع هذا الدفء الإنساني والضوضاء التي تصنع خلفيَّةً تُشبه نعمةً مستمرة لآلة كوتترياص. ملاعق ذات رنين، كؤوس تُقرع ببعضها البعض، نقرات أبواب، صفير ماكينة القهوة، طلباتٌ تُطلق عشوائيًا هنا وهناك، بريق أصوات تتلاشى وتتقاطع، تمتزج، تُلخبط. تنويعات من نبرات الصوت ودرجاته. منعطفات للكائنات والأضواء. ألتقط كلمة عابرة، كلمة محمولة في الهواء. إيماءة. أَلْحظُ نظرةً مختلصة. تستيقظ رغبتني في حضور وجه، في ضحكة، في جسد. ماذا لو حدث ذلك هنا؟ أترقب حدوث شيء على غير توقع، قبل فوات الأوان. تلك الفرص التي أضعتها جميعًا. إنني صبور، أكثر من المعتاد. ألتقط الدوافع الخفية. كم حكايةً تُعاش الآن، على مقربة مني، في كلمات متوارية؟

أترك نفسي أرتحل ببطءٍ لحالة نصف واعية. أضع لمسات إضافية على حياتي، أخترع حيوات الآخرين. أعيش حالةً من النشوة. إحساسًا بالتعاطف مع أولئك الرجال، أولئك النساء، الذين تتقاطع طرُقهم، يندمجون معًا، يحتكون بي، أو يتجاهلون بعضهم البعض، الذين سرعان ما يتلاشون، والذين لن أعرف عن أيهم شيء. البعيدين جدًّا، والقريبين تمامًا. تُرى مَنْ يكونون؟ ما الذي يُفكرون فيه الآن؟ كلُّ منهم، حين يُلمح، يحتفظ لنفسه بنصيبٍ من الغموض والخطط غير المكتملة. تُرى ما الذي تشاركه؟ لا شيء غير وجودنا معًا، في هذا المكان وهذه اللحظة.

أريد لهذه اللحظة أن تطول، أن أحمل كل شيء معي، أن أتابع مساراتها القادمة. لستُ إلا موظف كاشير يحفظ السجلات، محرر بيانات سرعان ما

يتم التخلّص منها. المقهى هو مقبرة خيالي. حيث أتخلص من تلك الأشياء الزائدة عن الحاجة، التي تعتمل في مسرحي الذهنيّ. أجيء هنا لأتزوّد بذخيرتي. أستعير، ذات اليمين وذات الشمال. يكفيني أن أكون هناك، جالسًا، في أقصى الخلفية، على الكنب، عند الطاولة المنزوية.

## حياة الآخرين

ثلاث سيدات، على ثلاث طاولات متفرقة، بمفردهن. لدى كلٍّ منهن شامَةٌ على الوجه: إحداهن قريبة من زاوية العين، والأخرى عند حافة الشفاه، والأخيرة في الخد. قد تكون ثمة شامات أخرى، في أماكن أخرى، أكثر سرِّيَّة؟

إنها في أوائل الثلاثينيات، ترتدي بذلة ضيقة. حين طلبت أن تدفع فاتورتها، أخبرها النادل بأن ثمة مَنْ قام بسدادها بالفعل، هذا الرجل، الجالس هناك، الذي أوماً برأسه تحيةً لها، وهو يبتسم. غير أنها أصرت على أن تدفع حسابها، وقالت للنادل أن يحتفظ بكل شيء، وانصرفت دون لفتةٍ ولا كلمة واحدة. هل كانت تعرفه؟

حبيبان، صغيرا السن. هو في الخلف. هي في الأمام. هو مَنْ يقوم بالحديث. أحاول أن أتابع ما يقوله الشاب في ملامح وجه الفتاة. كما في مرآة. من حرارةٍ نظرتها. لا يُمكن إلا أن تُغرَم به - في حيرةٍ وأسف، أقولها لنفسِي، مغتاظًا بعض الشيء.

ثلاث فتيات. يحكين لبعضهن عن رفقائهن في الفراش، بطريقة فظة، بتفاصيل كاملة، وبصوتٍ عالٍ. يتفِقن فيما بينهن، هؤلاء الرجال تنقصهم المقاومة. إحداهن تُلاحظ عيني المحدِّقة فيهن، فتتفجر في الضحك. «حسنًا، نتحدث عن شيءٍ آخر...».

كلاهما في عمر الستينيات. هي، مشاكسة. هو، صامت، صلب الملامح، فاتر المشاعر. شكواوى. تدوم طويلًا. ينتهي به الحال بأن ينهض واقفًا، دون كلمة واحدة، يضع معطف المطر، بهدوء تام، ودون أن ينظر ناحيتها، يخطو مبتعدًا. هي، بقوة مذهلة، تُدير الرؤوس ناحيتها: «عُدْ لحيث كنت! اجلس هنا! تريد أن تحصل على اللقطة أمام الجميع!»

على الطاولة المنزوية، متراجعين إلى الوراء، كأنما بداخل كوة في الجدار، بعيدًا عن الأعين، المكان الذي عادةً ما يختاره العشاق، يقوم الفتى، مُراعاةً للخصوصية، بوضع لافتة صغيرة في الصدارة: «محجوز».

بقبعةٍ على الرأس، وسترة منقوشة بمربعات كبيرة، وعلى الطاولة كأسٌ نبيذٍ أحمر. يفرش عشر أوراق نقدية مكرمشة، أمامه على الطاولة، ويفردها بعناية بظاهر يده. يقول للنادل: «هل يمكنك استبدالها لي بنقدية جديدة؟»

يلمحني الصبي فيما أقرأ رواية بوليسية. إنه يفضل أفلاطون وسوفوكليس، وهما اللذان يعيدُ قراءتهما دون توقّف، هكذا قال لي.

هو: «ما هو أفضل عمر للموت؟» هي: «سأُخبرك. إنه الخامسة والسبعون.»  
«أه! أجل! هذا صحيح، خمسة وسبعون، هذا عمر مثالي، معك حق.» نقلًا عن بيكيت، ربما.

في التراس. يذهب من طاولة لأخرى حاملاً بيده حقيبةً بلاستيكية كبيرة مكتظة بالخِرق البالية. «ألا ترغب في أن أشاركك كأسًا من النبيذ الوردية؟»

مدرس أمام رزمة من الكراريس. يبدو محبطًا.

قدمان حافيتان أسفل الطاولة. بأظافر مطلية، حمراء. ليس ثمة حذاء مرئيّ.

شقراء طويلة، ترتدي الأبيض في الأبيض. تدخل إلى المكان، مأخوذة الأنفاس، ذراعها محمّلتان بعلب مغلفة، تبدو مترددة، تجلس إلى أول طاولة، قريبًا من الباب. تنهض من فورها، لتجلس إلى طاولة أخرى. تنظر حولها، تقوم من جديد، تذهب إلى الجانب المقابل، على الكنية، تضع العلب التي كانت تحملها. هذا هو، هذه المرة، إنه المكان المناسب.

كوميديانان مبتدئان، صبي، وفتاة، إيطاليان، يرددان معًا. «ابن عمي العزيز، ألا تشفق على مصائر النساء؟ انظر ماذا يحدث لي.» أتعرّف عبر هذه السطور إلى دو موسيه.

يُخبر صديقته، مُمسكًا بأصبع أحمر الشفاه في يده: «هذا صحيح! أحضري جثةً أمامي وسأضع لها المساحيق بطريقة فائقة ستُعيد الميت إلى الحياة!»

على أطرافها الأربعة، ثلّمع النادلة أرجل الطاولات.

امرأة مُسنّة. تجلس بمفردها. شعرٌ رمادي، مشدود إلى الخلف. نظارة. أغمضت عينيها، لكنها ظلت منتصبّة، دون أن تستند إلى ظهر المقعد. يداها، أعلى الطاولة، مضمومتان. شفتاها، بيضاء قليلًا، منفرجتان، تتلعثم في صمت. إنها تُصلي.

ألم تعرفوا؟ النادل كسر خزينة الكاشير. لن نراه بعد الآن.

## الفرقة الصغيرة

يُشكّلون مجموعةً من خمسة أو ستة أفراد، فتية وفتيات في عمر السادسة عشرة، يجيئون من مدرسة «راسين» الثانوية، تلك التي خلف المقهى، عند نهاية اليوم الدراسي، يحطون رجالهم في تراس مقهى «لابورداج»، المجاور للميدان. يضمون ثلاث طاولات بجوار بعضها البعض، يطلبون أكواب القهوة، أو الكوكا لاثنين منهم، إنها الأرخص بين الطلبات، يدفعون بقطع من الفكة، مجرّفين جيوبهم حتى أقصى عمقها، جاعلين أسوأ ما في النقود بقشيشًا للنادل الذي يُحدّثونه ويُنادونه باسمه مجردًا. هو لا يكبرهم سنًا بفارق كبير، يتجاوب مع نكاتهم، يتمهّل عند طاولاتهم، مع القليل من الحسد، ربما، من هذا الطيش المائل أمامه.

مقهى «لابورداج» هو فضاء الحرية بالنسبة إليهم، وكذلك الصداقة، وأكثر من ذلك. ما بين المدرسة، التي يفرون منها، والعائلة، التي علينا اكتشافها لاحقًا، في آخر فرصة ممكنة. هنا لهم جميع الحقوق، هنا يحبون أن تُقدّم لهم الطلبات، مثل أي زبون آخر، إنه دورهم في تلقي الخدمة. ينسخون واجبًا مدرسيًا في ركن الطاولة، يدخّنون بصعوبة نسبية (لقد تعلموا طريقة لفّ السجائر لأنها أقل كلفة من غيرها، كما يطلبونها من زبائن آخرين، هذا أمر محسوم، تتولى الفتيات هذه المهمة، يدُرّن حول الطاولات، ولا نستطيع أن نرفض لهن طلبًا)، يُعانقون بعضهم بعضًا بحماس وجدية. يتحدثون بصوت عالٍ، عن أحد الأفلام، أو المسلسلات، عن الموسيقى، عن آخر قطعة ملابس اشتراها أحدهم في التخفيضات، إنها مضبوطة تمامًا عليك، انفجرون في الضحك بشكل مباغت، يحكون عن مآسيهم الصغيرة، يتسكعون لما لا نهاية أمام كؤوسهم الفارغة وفناجينهم الباردة قبل أن يتفرّقوا، يا للأسف، حتى يحين الغد.

## في مقهى روبيس، كما جرت العادة

نيبذ «سان جوليان». «بُورجي». «بويلي فويسيه».

نبدأ النقاش أمام قائمة النيبذ، فيتلاشى الحديث على الأسطح والمرايا. يجعلنا المدير نتذوّق نوعين أو ثلاثة من الأنواع التي وردت حديثاً في صناديق مليئة بالزجاجات - ليست معتقة بما فيه الكفاية، ثقيلة أكثر من اللازم، ليست مثيرة للاهتمام، ثمنا ليس في متناولنا - ودائماً ما ينتهي بنا الحال بأن نعود إلى زجاجة الـ«شاتو كانتيران»، والـ«سان إيمليون». إنه احتفالنا الشهري المسائي الصغير الخاص بصدافتنا.

نيبذ «شيلي». «شينا». «شيفرني».

نتحدث في كل شيء - بما في ذلك الجدالات، التي تصل لحد الشجار، ما بين الاستفزازات ولحظات الصمت. نتحدث عن الأدب، فوق ذلك، واهتماماتنا المشتركة تجاه بعض المؤلفين، دون قيود. هذا هو أصلنا، الذي لا يمكن الاستهانة به. نتحدث عن مشاريعنا، عن نصوصنا التي نعمل عليها، عما نتشارك فيه، عما نواجهه، عن أحلامنا، أيضاً، من منا صمد أمام التقدّم في العمر، عن بهجاتنا وهزائمنا. نعرف بعضنا عن ظهر قلب، نأتمن بعضنا على الأسرار. لن نشعر بأننا مكتملون تمام الاكتمال لو فارقنا بعضنا البعض.

نيبذ «جولياناس». «فليري». «كوينسي».

القاعة صغيرة، لذا عليها أن تُشبهنا بشكل أو بآخر، ضيقة، طويلة الشكل، بجدرانها الصفراء الباهتة والمغطاة بالكتابات. الطاولات قليلة، الكنبه هابطة قليلاً، بعض البراميل رُصّت على الرصيف لمن لديهم الصبر، هناك يقفون، حاملين كوؤسهم في أيديهم. في نهاية السهرة، تجد المدير يقرأ في الجريدة أو يحدث أحدهم عند نهاية الكاونتر. يبدأ بإطفاء الأنوار في الواجهة، يخلع المقبض الخارجي للباب، يغلقه، يتركنا، كامتياز خاص، على الطاولة الخلفية، لنواصل الحديث والشراب حتى نتجاوز موعد غلق المقهى.

نيبذ «سانت إستيف». «كورتون». «برويلي».

هنا شرعنا في كتابة قصة صدافتنا، هنا أوجدناها - منذ كم سنة؟- وبعدها صار مدير المقهى على وشك مفارقة المكان وكنا نحن آخر الزبائن الموجودين، في ذاك المساء، للاحتفال معه بمناسبة تركه العمل في المقهى - لكن مع

موجةٍ من الانفعال تضرب أرواحنا ستزول دون شك حين نغادر المكان -  
رحنا نبحث عن مقاهٍ أخرى، دون اقتناع كامل - هنا وهناك، لكن لا، ليس هذا  
- ولا زلنا نبحث.

نبذ «ريزلينج». «سانسير». «شينو».

ما كان يجب أن يتحرك أي شيء.

## موعد الشاي

«هم لا يعرفون كيف يُحصِّرون الشاي، ولا حتى يعرفون كيفية صنْع شوكولاتة حقيقية. ونحن وقتنا ضيق، ودائمًا ما نكون في عجلة من أمرنا. كما لا توجد مخبوزات جيدة.»

كثيرًا ما أسمع هذه الانتقادات.

هي تُفضل الجلوس في قاعات الشاي المعدَّة جيدًا، بمفارش قطنية حقيقية على الطاولات، بمناشف سفرة حقيقية، بآنية فاخرة من البورسلين، بملقَط لتناول السكر، يُفضَّل من الكريستال، الأبيض والأحمر، بمقاعد مريحة ذات مساند، مفروشة بأقمشة وثيرة - وأنا، بتصالح تام، ودون أحكام مُسبقة، أستطيع أن أشاركها في هذا الأمر، من وقت لآخر. مقهى «أنجيلينا»، «لادوريه»، «سميث»، «إنها أماكن مريحة للغاية». عادةً ما تذهب لهذه المقاهي بمفردها، أو برفقة صديقةٍ ما، في موعد الشاي، لتمضية أمسيات بلا نهاية. «كما أنها أكثر هدوءًا، ألا ترى ذلك؟»

هنا في مقهى «كاريت»، الذي صار منزلًا لها بدرجة أو بأخرى، يصبح الأمر كأنما تستقبلني في بيتها. باقة ورود صغيرة على الطاولة. الكعك معروض في قاترينة الحلوى. نساء كثيرات، على نحو مُلفت، من جميع الأعمار، والنادلات، صارمات. زبونة أو زبونتان معروفتان للمكان، أما أنا فلا أعرفهما بالطبع، تُخبرني باسميهما، ما لا يعني أي شيء بالنسبة إليّ. «بلى بالطبع، كما تعلم...» تمتزج العطور. ديكور من طراز الـ«آر ديكو». يمكنني أن أتذوَّق كل ذلك. هنا علينا أن نتجنَّب الموسيقى، التليفزيون، تيارات النسيم، الصحة السيئة. إنها أجواء لا تتفق مع طبيعة المنزل.

ماذا ستختار؟ شايًا صينيًّا؟ بنكهة الورد؟ أم بنكهة الفواكه؟ الشاي المعتاد الذي نشربه في المنزل؟ يبدو عليها التردد، ثم تُقرر أخيرًا - اليوم ستشرب شايًا مثلجًا. ماذا عن السيد؟ بطريقة غريزية، أجلس مُنتصبًا في مقعدي. قائمة الطلبات طويلة جدًّا، تشرح لي الخيارات، تُسدي إليّ النصائح. لا، لا أريد شايًا، أشكرك، لن أذهب بعيدًا لهذه الدرجة، لا أستسيغ الشاي على الإطلاق. «هل أنت ممن ينبطحون سريعًا هكذا؟ يا للعار، اطلب على الأقل قهوة حقيقية». هذه قهوة «أرايكا» نقية تأتي رأسًا من كولومبيا وتُقدَّم في إبريق مصقول جيدًا، به ما يكفي لملء فنجانين ونصف الفنجان. أضيف على طليبي قطعة من الميلفوي، من الطراز الكلاسيكي، مُغطاة بالسكر البودرة، ما عدنا نحصل عليها في أماكن أخرى، أما هي فأضاقَت لطلبها كُنابيه

محشواً بالخيار، الطلب الخصوصي، «مثل ملكة إنجلترا، مع شاي الساعة الخامسة».

الأحاديث مكتومة تحت ضوء الأباجورات ذات اللون الكريمي، العشاق ملتزمون بهدوء الحكماء، يجلسون وجهًا لوجه، بالكاد يسمحون لأيديهم بألعاب حذرة متحفظة. نسدد الفاتورة عند الكاشير. ونحمل معنا حلوى الـ«مأكرون» المغلفة في جراب بديع.

«أنا من دعوتك. في المرة القادمة، سنذهب إلى مقهى الـريتز. احتفالاً بذكرى بروس» إنها تعرف الحجج القادرة على الإقناع.

وبرغم ذلك، فإنها ترافقني في بعض الأحيان لمقهى عادي، حتى لو كانت طاولته من الفورميكا. لنشرب الكوكا، أو كأسًا من النبيذ. أو لتذوق نوعًا من البيرة - في كوبي الخاص. في ذكرى المترو، أو شارع قافان، حيث قبَّل أحدنا الآخر، بجموح.

## بيرة، مع بطاطس مقليه

دائمًا ما يجلس في نفس المكان، في الزاوية، موليًا جنبه للشباك المطل على الخليج. يبقى مرتديًا معطفه، رافعًا ياقته لأعلى. فيما يُعلق قبعته على ظهر الكرسي الشاغر المواجه له، على الجانب الآخر من الطاولة. إنها رفقته الوحيدة هنا.

لا يحتاج لأن يطلب أي شيء. تُعد له النادلة طاولته، وتُحضر كوبًا من البيرة وطبقًا من البطاطس المقليه. هذا هو عشاؤه في الساعة السابعة.

يميل على طبقه، يغرر الشوكة في أصابع البطاطس واحدًا فواحدًا. ذهبية تمامًا، ومقرمشة قليلًا، تمامًا كما يحبها، يقوم الشيف بتحضيرها خصيصًا لأجله. لا يرفع رأسه إلا ليشرب حسوةً من البيرة. إنها أكبر سعادة يمنحها له اليوم.

إنه نحيف، له شعرات بيضاء، أسفل ذقنه، أفلّنت من شفرة الحلاقة، شعره الخفيف، مُسرح إلى الخلف، مُثبّت بدهان الشعر. ثمة جهاز في أذنيه لتنظيم الضوء من أن لآخر. وحيد على الدوام. فيما يفكر هذا الرجل؟ هل ثمة ما يُفكر فيه، فيما هو منهمك تمامًا في طبق البطاطس المقليه وكوب البيرة؟

يرتدي دبلة زواج وخاتمًا آخر عليه نقش ما. يلفُّ منديلًا حرييرًا بني اللون حول رقبته. حذاؤه مُلمّع باتقان. يبذل جهدًا ملموسًا كيلا يبقى منبودًا من الآخرين. يبدو أشبه بعادة قديمة. كبقايا أناقٍ بائدة. هنا يستطيع أن يواصل الشعور بمشاركته في الحياة العامة. حتى لو لم يُحادثه أحد أو ينظر إليه. إنه مختفٍ تمامًا.

النادلة هي الاستثناء الوحيد. يعرف الواحد منهما الآخر جيدًا، اعتادا بعضهما البعض. تعتني به، تُطل عليه من أن لآخر، تسأله إن كان حاله على ما يرام، إن كان لديه كل ما يلزمه، إن كان يريد كوبًا آخر من البيرة. أو المزيد من البطاطس المقليه. يومئ إليها بإشارة تعني لا، شكرًا لك، المزيد قد يضر به، هذا يكفي، كل شيء على أفضل حال.

حين ينتهي، ترفع الطبق، وأدوات المائدة، والمفرش الورقي، لكنها تترك كوب البيرة، الفارغ، إلا من طبقةٍ من الرغاوي الراكدة في قعره. لا حاجة للعجلة. خذ كل الوقت الذي تحتاجه. يبقى في مكانه، بلا حراك، عيناه نصف

مغمضتَين، ذراعاه معقودتان. بين الضوضاء والأضواء. هنا، يشعر بأنه الآن سعيد.

## «موعد غرامي في ريف»

هل يدين بجاذبيته لعلامته التجارية؟ قاعاته الصغيرتان (إنها المساحة المثالية لمن يريد أن يهيم في أحلامه)، تُشرفان على ميدان «كونستنتان - بيكير»، في مقدمة شارع «كولانكور». تسكنه الأشباح التي تتشبت جيدًا بجلوسها حول الطاولات أو بوقوفها عند الكاونتر. أشباح «داميا»، «ساندرار»، «جان ماريه»، «ماري ماركيه»، «چاك بريل»، «سوزان جابريلو» (يُقال إن چاك بريل كتب لها أبيات أغنيته لا تتركيني في هذا المكان - برغم أنه هو من تركها). «سيمون» - وقت كان لا يزال يُدعى «چورچ سيم» - كان يزعم بأنه كتب في ترأس هذا المقهى، وفي نهار واحد فقط، روايته التي عنوانها رواية لكاتب الآلة الكاتبة، كما جعل الكاتب «مارسيل إيميه» بوليس ال-جارو-جارو في قصته الخيالية السائر عبر الجدران يتمكن من القبض على السارق أخيرًا في نفس المقهى. منه ترسل سيلين إلى فرديناند طلب اللجوء في رواية حكاية خيالية لوقت آخر أثناء قصف مدينة «بوت» بواسطة قوات الحلفاء (أطلق الكاتب لويس فيردناند لويس على المقهى اسم «بار مارسيل»). في كتابها المصوّر أجريبين ذهبت كلير بريتيشيه بشخصية المديرية التي تُدعى «إيليت» لنفس المقهى. حتى موديانو في ذات شباب، جعل «أوديل» و«لويس» يلتقيان هنا لمجرد الحصول على السعادة البسيطة لسماع كل منهما يقول للآخر: «موعدنا في الخامسة، في مقهى ريف».

«لو كانت المقاهي وسيلة الحصول على الأحلام، كان «جي» يقول. فيما يقول «جيل» في خلفية الفيلم الذي أهداه إليهم: باريس هي المدينة التي يمكننا أن نحلم فيها أكثر من أي مكان آخر في العالم».

## ميجريه، موديانو

ربط ميجريه عاداته بمقهى «لا براسيري دوفين» (في الواقع كان اسم المقهى أو تروا مارش)، موقعه في «دوفين»، بجوار مبنى وزارة الداخلية، أو مطعم «تشي مانبير»، شارع «كولينكور» (اسمه الآن «لو سيباج مونتمارتروا»). كان يلتقي زوجته هناك («مرّ خمسة عشر عامًا على الأقل منذ آخر مرة تقابلنا فيها هناك، ذات ليلة، بعد نهاية عرض مسرحي... هل تذكرين؟»)، أو يُقابل زميله تورانس («كوبًا من البيرة؟ يقترح المفتش. ويترك ميجريه نفسه يستسلم لهذا الإغراء. كانت هذه جولة الشراب الثانية»). كانت تحرياته ما دفعته لأن يجلس طويلًا على طاولات الحانات الليلية. كان يمضي اثنتي عشرة ساعة متواصلة من المراقبة في بار «تاباك فونتين»، في الشارع الذي يحمل نفس الاسم، في مجاورة «بيجال»، أمام مطاعم الساندوتشات ولحم الخنزير («كان يبدو كما لو كان قطعة من أثاث المكان. أو بالأحرى جزءًا من الحائط. نظرائه فقط هي ما ظل يوحى بالحياة إذ استمرت تتحرك ببطء من لاعب لآخر»). إنه في المقهى الرياضي، عند ناصية ميدان الجمهورية وجادة فولتير، حيث يكتشف الحل للمعضلة الحالية: «إدًا بيكيس غير موجود. لم يكن إلا شعارًا دعائيًا»، الشيء الذي رآه بوضوح في بوستر دعائيٍّ لإحدى شركات النقل والذي اختاره الجاني كاسم مستعار. عند متجر الفحم والمقهى القديم في نهاية شارع «جومينيه»، لا يزال بإمكاننا أن نقرأ التالي: «على هذه الطاولة أكل السيد المأمور «ميجريه»».

على كنبه في مقهى «سان سوسي»، في شارع «بيجال»، حدث أن التقى الراوي في رواية موديانو ليلة باريس بالدكتور غريب الأطوار بوفيير. وكذلك في أولى صفحات رواية كلب الربيع لموديانو يلتقي الراوي، برفقة صديقه، مع المصوّر فرانسيس جينسن في مقهى يطل على ميدان «دانفير روشيرو» («أدركت بصعوبة كيف يستهدفنا»). في رواية من أبعد نقطة في النسيان، يبقى الأمر على هذا النحو «ظلت تنتظر لمساءات طويلة، دون فائدة، في مقهى دانت»، جاكلين. ذات مساء، في شارع ميسين، يموت رجل، في صمت، بلا مقدمات،

لا أحد بجواره، إلا الوحدة، في تراس مقهى ما عاد يذكر اسمه. في مقهى «هورتينيسيا»، في ميدان «بيرير»، بعدما أغلق بصفة نهائية مكتب التحريات الخاص به، ذهب «هوت» لكي يتناول كأس الوداع («كان هوت يحب هذا المقهى، لأن مقاعده تقليدية مُضلعة، «تمامًا كما كانت في الماضي»»). في مقهى «كورونا»، الكائن في مقابل رواق الأعمدة في متحف اللوفر، في زاوية الرصيف، حيث كان أبوه يتواجد كثيرًا فيما مضى، أفشى له شخص

يُدعى «م. جولان» بعضًا مما خفي عليه من ماضي جيزيل المريب. لوكي، على سبيل الهرب، كانت تلجأ كل مساء للجلوس في مقهى «كونديه»، «مقهى الشباب الضائع» («بين مدخلَي المقهى كانت دائمًا ما تختار الأضيق، ما اصطُلح على تسميته بالباب المخفي»). هل من مقاهٍ أخرى؟ مقهى الـ«روتوند» عند محطة أورليون، مقهى «لو سان كريستوبال» عند «مونمارتر»، «في مالافوس»، مقهى «الفنون الجميلة»، على الرصيف («اذهب لتحصل لنا على تذاكر الرهان في مالافوس»، هكذا قال له أبوه)، مقهى «لو روك أونيفير» في اللوفر، مقهى «لو تورنو»، مقهى «لا كلوزيري دوباس» ... أغلبها مقاهٍ مجهولة. غير أنها تعود إلى الظهور من رواية لأخرى.

المقهى مكان للتحري، للمراقبة، لليقظة، للملاحظة الدقيقة بالنسبة للبعض؛ علامة على الطريق، مكان للجوء، مكان لا مكان بالنسبة للبعض الآخر أو للقاءات التي تحدث دون ترتيب، لمن يحاول أن ينسى نفسه، أو أن يختفي عن الأعين. في المقهى نصير أكبر من أعمارنا، أو ربما أصغر. معروفين أو متخفين. هناك نشرب البيرة، أو الماء بالنعناع.

سيمينون وموديانو اللذان يرسمان، كل على طريقته، مقاهي باريس والغرض من وجودها، لطالما ترددنا، رغم فارق السنوات فيما بينهما، في شبائيهما، على مقهى «لو ريف» في شارع كولينكور. يذهبان بعيدًا في استعادة الذكريات، كل على حدة، كل تلك اللحظات السعيدة التي ما عادت موجودة.

## فقدان القدرة على التخفي

مقهى «ستارباكس». صالة الخطوات الضائعة في محطة «سان - لزار»، على جانب رصيف المحطة الرئيسي. يسمونه «محل بيع القهوة». كتب، مقاعد تغطس بداخلها، طاولات وسط، وموسيقى تملأ الأجواء، بالتأكيد.

أقف في الصف الممتد بمحاذاة الكاونتر. «ساندرين»، حسبما يظهر في شارة الاسم المشبوبة في قميصه، يأخذ طلباتي.

«ما اسمك، لو سمحت؟»

أتردد لبرهة. هل سيطلب مني أوراقى الرسمية؟ إنها عادة هذه الأماكن، يبدو ذلك. هنا، يجري التعريف بالنفس في الاتجاهين. أخبرك باسمي، على أن تخبرني من تكون. لو أبيتُ امتعاضى لصار الموقف أسوأ. هل لديّ ما أرغب في إخفائه؟ يرفع رأسه لينظر إليّ، بنفاد صبر. يضغطونني من الخلف. ليس لديه وقتٌ لأي لفتة، كما يبدو لي واضحًا أنني لن أحصل على قهوتي دون أن أنصاع إليه. أرسم ابتسامة محرّجة على وجهي. لماذا أعاني كل هذه المشقة لمجرد نطق اسمي؟ يُمكنني حذفه. نادني بـ «شخص»، أو بـ «شبح»، وأنا سأفعل كذلك. عليّ أن أتنازل عن ميزة التخفي.

تكتب «ديديه» على كوب من الورق المقوى، بقلم ماركر كبير، بخط جميل منتظم، مليء بالمنحنيات (ما أظنه يسمّى في الإنجليزية بالخط المتكوّر). ربما تم تعيينها بسبب موهبتها كخطّاطة. «ساندرين» شقّرتها فينيسيّة، لها عينان جميلتان يمتزج فيهما الأخضر مع الرمادي، بعض النمّش على الوجنتين، غير أن الثقة المتبادلة بيننا تنتهي عند هذا الحد. لن تُعفيني الألفة الناشئة بيننا من دفع قيمة طلباتي.

ذيل جديد أتعلّق به. أنتظر نادلة أخرى، الآن تُدعى «جابريل»، تنادي اسمي، بقوة زائدة بعض الشيء، لآخذ القهوة التي أعدّتها لي. «ديديه - قهوة - مخففة».

أما من هم حولي، فأكثرهم يختارون أنواعًا كبيرةً ومعقّدة من القهوة. لاتبه بنكهة قرع العسل اللاذع. لاتبه بنكهة الجوز المحلى بالكراميل. مع كعك المافين، والكوكيز، وحلوى الدونتس. يبدوون غير مباليين بذلك الاستجواب الذي عانوا منه قبل قليل. كل منهم يدور بين الطاولات بحثًا عن مقعد، حاملًا اسمه المكتوب على قدحه الورقي كأنه كأسٌ فاز بها. «هيلين»، «أوليفيه»،

«جوليا»، «مانو»، «إيفيلين»، «نيكولا»، «زافيه»، ... ما اللعبة التي نلعبها الآن؟ يسود إحساس بالعودة لرياض الأطفال.

لكن لا، الأمر ليس بهذا السوء، واللعبة تنتهي عند هذا الحد. لسنا مجبرين على رفع الكلفة فيما بيننا، ولا على التعارف على بعضنا البعض، ولا حتى على تبادل الحديث. برغم اضطرارنا إلى التعريف بأنفسنا، يتجاهل كل منا الآخر، يظل في ركنه الخاص. أغوص في الفوتيه الكبير، مع إطلالتي المشرفة على شارع «أمستردام». كما أن القهوة جيدة.

تمُرُّ «إيزابيل» حتى تُخلي الطاولة. «هل انتهيت؟» أسمح لنفسي بقول «نعم، شكرًا لك ... إيزابيل». تتجهّم قليلاً، وتلتقط كوبي الفارغ، ودون أن تلقي نظرة على اسمي المكتوب عليه تسحقه بعناية قبل أن تُخفيه في جوف حقيبة بلاستيكية كبيرة.

## على غير توقُّع

كتب سارتر وبوقوار الكثير، كُتِبَ بأحجام ضخمة، كُتِبَت في مقهى «دوم»، في مقهى «سيلكت»، في مقهى «فلور»، وفوق ذلك، أثناء الحرب، في صالة الطابق الأول (قُرب المدفأة، خلال الشتاء). كان جورج ألداس يقضي خمس ساعات يوميًّا في مقهى «شي سعيد»، لكي يكتب بخطه الصغير، ورأسه ملتصق في كراسياته خلف نظارته الضخمة ذات العدسات المدوّرة، كل أجزاء مذكراته، مقالاته، أو أشعاره. أما ناتالي ساروت فقد كانت تجلس صباح كل يوم في مقهى «مارسو»، الكائن أسفل منزلها. «دائمًا ما أعمل بداخل المقهى، كانت تقول شارحةً الأمر. أحتاج لأن أخرج من منزلي، هناك أكون معزولةً تمامًا. ليس لدي ما يُشغطني. حتى ضوضاء المقهى وتواجد الرواد الذين هم غرباء بالنسبة لي يجعل احتمالية التركيز على العمل أكبر بكثير مما لو كنت وحدي في المنزل». كان برنابو يقول: «أكتب على طاولات المقاهي لأنني لا أستطيع الاستغناء لمدة طويلة عن وجوه البشر وأصواتهم».

حين أرغب في لقاء «بيير ب.»، أعرف أنني سأجده في المساء في مقهى «ويبلر»، محنيًا فوق أوراقه الضخمة التي دائمًا ما يستعملها في الوضع العرضي. يستولي على الطاولة المستديرة، تلك التي في زاوية المقهى، ناحية اليسار، والتي يُغطيها تمامًا بأشياءه الكثيرة كما لو أنه في منزله. هناك كُتِبَ جميع مؤلفاته.

كيف أمكنهم أن يبقوا غائبين دون أن يفقدوا الخيط؟

(على عكس القناعة الشائعة، لا يُعدُّ «كُتَّاب المقاهي» كثيرين لهذه الدرجة. احتاج بيتر ألتبرج، مرة أخرى، لتأليف كتابه «اسكتشات» إلى كافييه «سنترال». أما أراجون، ومن أجل تأليف قصائده العفوية، التي يدوّنهما على عجل على هوامش كتاب «السواد والذهب الذي بلا بريق»، فقد ارتاح إلى الجلوس في مقهى «لا سورس»، في «روشير»، في «كلوني»، في «إكسلسيور» - مطالبًا طوال الوقت بالمزيد من الأوراق بعبارة: «جرسون أريد شيئًا يمكنني الكتابة عليه». ثمة آخرون، ربما، غير أنهم في الغالب شعراء لا يحتاجون، على أي حال، لطاولة، ولا لقلم، ولا لأوراق - يستطيعون الكتابة في أي مكان، حتى في الشارع، بينما يمشون، يحفظون أبياتهم في حنايا قلوبهم، أو في الذاكرة، بداخل رؤوسهم).

جالسًا إلى طاولتي، لا يكون بإمكانني نسيان مكاني. هذه مجرد كلمات مسروقة، دُوِّت بأقصى سرعة خشية فقدانها، سطران، بعض الجمل التي نادرًا ما تصل لنهاية الصفحة في كراستي. عناوين. استهلاطات. مسودات. اسكتشات. أسجل الوقت الذي ينقضي في الأشيء بالدقيقة. مع كثير من الخ، ومن نقاط الاستطراد. لا بد لكل شيء أن يُكتب، فيما بعد، وإلا سيكون مصيره في سلة النفايات.

إنه هنا، ربما لكونه مكانًا يطفو فيه الانتباه، حيث أكون، دون جهدٍ، أكثر قربًا من نفسي. أجيء لكي ألتقط الأفكار فيما تعبر أمامي. على غير توقع.

## على المسرح، كافيّه «مولر»

صمت. عتمة نسبية. أضواء رمادية.

طاولات مستديرة ومقاعد بلا ظهر مبعثرة في المكان، ملونة بالأسود، تحتل المسرح بأكمله. حوائط بلا لون. باب من الزجاج يُفضي إلى الفناء والحديقة. وباب دوّار في الخلفية، في ركن مجوّف. تصل راقصة في قميص أبيض طويل، تتلمّس طريقها إلى الداخل، بعينين مغمضتين. ثم راقصة أخرى. ترتطمان بالمقاعد والطاولات، فتقلب رأسًا على عقب. يتفكّك ديكور المكان بالتدرّج بحيث يصنع حالة من الفوضى الهائلة. موسيقى «بورسيل» في الخلفية. يعلو صوت ملكة الجن في أوبرا بورسيل في تنهيدة طويلة. «أووّه دعني أنتحب...».

(تقول «بيننا باوش» إن جميع الرقصات التي صممتها تمتد جذورها في ذكريات الطفولة وقت كانت، فيما تختبئ أسفل طاولات المقهى الذي كان والداها يقومان بإدارته، تنتصّت على الأحاديث، وتُعّين الخوف والغضب في نبرات زبائن المقهى، أثناء قصف طائرات الحلفاء للمدينة. «إن ذكريات الطفولة هذه مشوّشة، وقد نسيتها بالفعل. لا أستعيدها بتاتًا إلا أثناء عملي. إنني أقضي حياتي في محاولة متواصلة لمنح تلك المشاعر الدفينة الزائلة شكلًا متماسكًا»).

«بيننا»، على مسرح «دي لا فيل»، سنة 1981. كانت هناك، في كل عرض، دائمة الجلوس في نفس المكان، في المقاعد الزوجية، في الصف الخامس. مع نهاية العرض، كانت تذهب إلى الكواليس، ثم تظهر على خشبة المسرح، متّشحةً بالسواد في بدلتها الـ «ياماموتو»، شعرها ملموم إلى الخلف. كانت الصالة تتغنى باسمها. أتذكر ذيل حصانها فيما يتمايل يمنة ويسرة مع كل تحية للجمهور.

## جيلبرت وفيرونيك، في مقهى «دو ماجو»

«لنذهب لتناول القهوة.

- ليس لدي نقود.

- سأدعوك».

في فيلم الأم والعاهرة للمخرج جان أوستاش، كان «ألكسندر» يقضي أكثر أوقاته ما بين فراش «ماري» - مجرد مرتبة على الأرض - وبين التسكع في المقاهي. مقهى «سانت جيرمان دي بريه»، مقاهي الحي اللاتيني، مقهى «لو رستان»، «لو فلور»، «لو دو ماجو»، «لو سانت كلود»، «لو مايو». بداخل الصالات أو في التراسات.

«هل تريد كأسًا أخرى؟

- نعم، نعم».

إنها مثل مفارق الطرق، يدور عليها الجميع، تتلاقى، وتظل أبوابها مفتوحة دائمًا، في خلفية المشهد.

كان المقهى المفصلّ لديه هو «لو دو ماجو». يقضي نهاراته وأمسياته هناك، سواء كان وحيدًا أو بصحبة أحد الأصدقاء. لقراءة الجريدة (لو موند)، أو كتاب (بروست، المجلد الخامس، السجينة)، لشرب الويسكي (من نوع J&B)، لتدخين السجائر (ماركة جولواز - وعلى الطاولة منفضة سجائر من ماركة دوبونيه)، أو لمطالعة الفتيات.

في نفس المكان تتركه «جيلبرت». تُعلنه بأنها ستتزوج. فتبدأ مُعاناته.

«كنت قد نسيْتُ وجهك، كان عليك أن تهجّرني حتى أجدك من جديد، بتولًا، كما في أول لقاء». مشهد الانفصال. مكرّر.

«أنت تعلم أن الأمر ليس بهذه البساطة».

كان يشعر بالمرارة، أو ربما الشفافية.

«ستعيشين برفقة رجل لا تحبينه لأنه من الصعوبة بمكان أن تعيشي برفقة رجل تعشقينه».

لقد تجاوزنا الثامنة والستين، انتهى الأمر.

«حبيبي. هل تتذكر. لقد قلنا إننا بالكاد نجونا. إننا كان لدينا الفرصة لأن نعيش طفولتنا، فيما أننا غير متأكدين من أن أطفالنا سيتمكنون من أن يعيشوا طفولتهم في هذا العالم حيث يصير الناس مُسَيِّين في عمر السابعة عشر».

في نفس المكان أيضًا يتعرّف إلى «فيرونیکا». مشهد اللقاء. تجلس فيرونیکا في التراس، تلتقي النظرات، يضطر لأن يُشِيح وجهه بعيدًا، المقعد خالٍ. حين يجدها من جديد، في صالة المقهى، تكون قد عادت.

«لديّ موعد مع شخص لا أعرفه وقد يكون أنت».

يتعارفان.

«هل أنت بمفردك؟»

- في الوقت الحالي ليس معي أحد. ماذا عنك؟

- أوه، أنا! ... يمكننا أن نتحدث عن شخص ما ينتمي إلى الماضي فحسب».

يلتقيان من جديد. إنه شخص كثير الكلام.

«حين نكون سعداء مع شخص ما، يمكننا تمضية الوقت معًا بداخل المقهى. سواء تحدثنا أو صمتنا.

- سيكون من الضروري أن نصمت، أن ننظر لبعضنا البعض في صمت، أو أن نثرثر كثيرًا فالأمر يستوي في النهاية».

محادثات تم تصويرها في مشاهد طويلة تُبَيِّن فيها الكاميرا على وجه أحدهما، ثم الآخر، مُواجهًا الكاميرا، عينا أحدهما تُحدِّق في عيني الآخر، ثم في أعيننا نحن المشاهدين. (أصحاب الموجة الجديدة يفضلون الحديث في المقاهي. كل هذه المناقشات بين شخصين، أو بين مجموعة، جلوسًا حول طاولة، في مقهى «ريفيت»، في «تروفو»، «روميه»، «كابول»، «مَل»، «روزيه». في فيلم يعيش حياته للمخرج «چان لوك جودار»، يقول

الفيلسوف «بريس باران»، في دوره الخاص، إلى «آنا كارينا»: «لن نستطيع العيش دون أن نتحدث». أين صوّر هذا المشهد؟ في ميدان «دو شاتوليه». في مقهى «زيميه»، أظن ذلك).

مقهى الوقت المارّ. الوقت الضائع. ما الذي تبقى لألكسندر؟ الفتيات، السينما (أفلام «مورنو»، و«بريسون»، و«نيكولا ري»)، الويسكي، أغنيات «داميا»، أغنيات «زارا لينديه» و«إيديت بياف»، أرصفة السين، بشظايا النور المتلألئ حولها، أثناء الليل. باريس ومقاهي باريس.

«تعرف كم يكون الناس أكثر بهاءً أثناء الليل».

جيلبرت خمرية، مشدودة الشعر إلى الوراء. تُدرّس في جامعة السوربون. فيرونیکا شقراء، ترتدي أربطة الشعر. تعمل ممرضةً في مستشفى لينيك. مقهى اللقاءات ولحظات الفراق. تنتهي حكاية حيث تبدأ أخرى.

نرى في البعيد، عبر النافذة الزجاجية للمقهى المطلة على الخليج، شاباً مجذوباً إلى الكاميرا، التي تتحرك. إنه عابر سبيل بسيط، يصبح كومبارس إضافياً دون قصد، تم الحصول عليه من قلب الفراغ. إنه طويل الشعر، ذو لحية، هزيل القوام، له معطف مُعلق بإهمال على كتفيه، وفتاة تمشي إلى جواره. تلتقي نظراتنا. يُشبه أحداً الآخر. كنتُ في التاسعة عشر، أنا الآخر، في العام 1972، فوق هذا الرصيف.

## مسرح الجريمة

«وقع مساء أمس حادث مأساويّ، في حوالي التاسعة والنصف، في المقهى الذي يُديره السيد «م. جيلمينو» في 128 مكرر، شارع كليشي، ما أشاع شعورًا خاصًا بالتأثر في أرجاء الحي.

الآنسة «لور فلورنتان»، شابة في حيوية الواحد والعشرين عامًا الفائقة والتي تعمل عارضةً للأزياء، وكانت برفقة السيد تشارل كاساخيمس وعددٍ من الرسامين أصحاب الجنسية الأسبانية، حين بدأ رفيقها يوبّخها في مشهدٍ فظيع، حالما وجدها تتعامل مع شاب ما بطريقة ودّية فوق ما يحتمل.

فَرَّت واقفةً الآنسة فلورنتان، مُعلِنَةً أنها تحمّلت ما فيه الكفاية من شكوكه الظالمة قبل أن تتجه نحو الباب. قفز الأسباني صوبها وأراد أن يمسكها من ذراعها. لكنها ارتدّت بعيدًا بطريقة مباغته. عندها استلّ مسدسًا من جيبه وأطلق النار على المرأة الشابة. لم تُصب الرصاصة هدفها، لكنها، تحت تأثير صدمة الشعور، تهاوت ساقطةً على الأرض.

وفي قمة ارتباكها، ودون أن يُدرك ما حدث للتو، ظانًا بأنه قد قام بقتل حبيبته، أدار ماسورة المسدس صوب رأسه وقبل أن تتمكن من إيقافه، أطلق رصاصة في قلب المعبد.

انهار الرجل سيئ الحظ فاقداً الوعي، نازقًا دمًا غزيرًا. نُقل بعُجالةٍ إلى صيدلية «داجون»، في بناية رقم 8، ميدان «كليشي»، حيث تمّت العناية به؛ ثم لاجئًا، وبناءً على توصية الطبيب، تم نقل هذا اليائس إلى مستشفى «بيشا»، حيث أنهيت إجراءات دخوله في عجالة.

السيد م. دوبوي، مأمور الشرطة في حي «دي جراند كاربير»، وحين تم إبلاغه بهذه الدراما المفجعة، ذهب إلى المستشفى حيث لم يتمكن من فعل شيء أكثر من إعلان الوفاة» (صباح الثلاثاء 19 فبراير 1901).

(كان «بيكاسو» صديقًا مُقرَّبًا لـ «كارلوس كاساخيماس». أشبه بدوبلير له. كان عمره عشرين عامًا. ظل طوال حياته مسكوتًا بهذا المشهد الذي لم يكن حاضرًا فيه. يُكوّن عددٌ من لوحاته ما يُسمّى «دورة كاساخيماس»، التي تمتد من عام 1901 إلى 1903، الفترة التي ابتكر خلالها مرحلته الزرقاء، والتي، كما يقول بعض النقاد، وُلِدَ فيها الرسم الحديث. موت كاساخيماس، جنازة كاساخيماس، الحياة، (تُظهر الدراسات التحضيرية التي تناولت هذه

اللوحه أنه بدلًا من رسم كاساخيماس بدأ برسم أول بورتريهاته الذاتية).  
المرأة ذات الشال هي «لور فلورنتان» - التي صارت عشيقته بعد هذه  
الدراما بفترة قصيرة).

هل يرجع السبب لقتل «چوريه» في مقهى دو كرواسان، أم لأنني كثيرًا ما  
كنت أتردد على المقهى «الذي يديره السيد جليمنو» المواجه لمدرسة چول  
- فيري (أصبحت اليوم حانة كليشي)، في أنني لم أقدر أن أتخلص أبدًا من  
فكرة أن المقهى هو أيضًا، ودائمًا، مسرحُ جريمة؟ (في مشهد النهاية في  
فيلم البشارة الناعمة الذي صُوّر في مقهى «قال ديزير»، في شارع «دي  
بيري»، كانت المرأة، المسلحة ببندقية صيد، هي التي أطلقت النار من  
مسافة قريبة على زوجها. حصل المخرج «فرانسوا تروفو» على إلهامه من  
قضية «نيكول چيرار» حيث وقعت الجريمة الحقيقية في مطعم «لو بيتي  
شيفرو»، في شارع «أوشيت»). تغير الآن اسم صيدلية «داجون»، في  
ميدان «كليشي»، لكنها لا تزال تفتح طوال سبعة أيام في الأسبوع على  
مدار الأربع والعشرين ساعة في اليوم.

تلك المشاهد الفظيعة في الأماكن العامة لا تجد طرقها دائمًا إلى العناوين  
الرئيسية للأخبار. أما الأقل إبهارًا، فهي الدراما التي تمرُّ دون لفت أنظار  
رواد المقاهي. كيف افترق العشاق الذين كانوا على الطاولة المجاورة، في  
صمت؟

## أوقات سعيدة

يحدث في المساء، بصفة خاصة، أن أفكر في هذا الأمر، في ساعةٍ لشرب كوب من البيرة أو كأس من النبيذ، حين يكون الهواء أملس وحين تطفو تراسات المقاهي فجأة فوق هذه الشوارع، على هذه الميادين، حين تتجاذب المقاهي، كلها مفتوحة الأبواب، وتقترب من بعضها البعض. جميعها ممتلئ بالشبان، فتيان وفتيات في الثلاثين، بعضهم يبقى واقفًا، ممسكًا بكأسه، على الأرصفة، متجولين من مجموعة لأخرى، فيما يدخلون السجائر. جميعهم يبدو عليهم معرفة الآخرين، يتحدثون مُتلقّين إلى اليمين واليسار، يضحكون، يحاوطون أكتاف بعضهم البعض، يُقبّل أحدهم الآخر، يروقني جمالهم، إنهم سعداء لكونهم معًا، ممتلئون بالثقة في مستقبلهم، عيونهم تلمع - هل يرجع السبب إلى البيرة، أم النبيذ، أم فقط الحياة التي يتنفسونها والشباب الذي يعيشونه؟ يقفون لبرهة فقط، كعابرين، أو كمن يبدأ ليلته تَوًّا.

لكن، عند لحظة أو أخرى حين أراهم من بعيد، أو حين أجلس بينهم بحثًا عن صديق، يعاودني شيء من القلق، يتسلل إليّ خوف خافق، كما وخزة في القلب. لن تحتاج لأكثر من قائد سيارة يقود بسرعة جنونية، يرتطم بنا، أو راكب دراجة نارية، يطير بمحركه دونما سبب، أو حقيبة تنتظر وجيدةً في ركن ما، لا أقدر على منع نفسي من إلقاء نظرة حولي، أتأمل ظلاً جانبياً، رغبًا عني، أطارد هذه الصرخات لخارج ذهني، تلك الصور لأجساد مسجاة على الأرض، صرخات صفارات الإنذار، قوائم الأسماء، تلك الوجوه التذكارية التي تصطف جنبًا إلى جنب فوق صفحات الجرائد، تلك التي تشبههم.

تسعة وثلاثون ميثًا.

لماذا لا نعاود البداية من هنا، الآن؟ نحن لا نتحدث عن الأمر، غير أننا جميعًا نفكر فيه. كيف نستطيع نسيان ظلال الثالث عشر من نوفمبر التي تتعلق من تراس مقهى «لو بيتي كامبودج» ومقهى «دو كاريلون»، من تراس «لا بون بير»، وكاونتر «فولتير» و«لا يل إيكيب»؟

## وحدة المكان

من يتذكر فيلم «جان جيريه» و«هنري دكوان» مقهى كادران؟ تم تصويره في الصالة الكبيرة بالمقهى الذي سُمي الفيلم باسمه. يقع مكان المقهى في 1 شارع «دونو»، على بُعد أمتار قليلة من شارع «الأوبرا». في أول لقطة متحركة من الفيلم، تُصوّر الكاميرا مشهدًا بانوراميًا خلف شارع دونو على يسار التقاطع الخلفي، لتُظهر لنا واجهة المقهى وتدخلنا بنفس الحركة لداخل المكان الذي لن نتركه مُجددًا حتى نهاية الفيلم. وضع السيناريو والحوار الكاتب «بيير بينار»، الذي صار رئيسًا بعد ذلك لجريدة «كانار أنشينييه» الأسبوعية، والذي كان، هو وعدد آخر من صحفيي الجريدة، من رواد المكان.

تدور القصة حول مُلاك المكان الجدد، زوج من مقاطعة «أفرن» وصل لتوّه إلى باريس، «جوليان كوتورير» (قام بدوره بيرنار بلييه) الجالس خلف الكاونتر، و«لويز» (قامت بدورها بلانشت برونوا) خلف الكاشير. «لويجي»، وهو عازف كمان له نجومية كبيرة في «كافيه دي باريس»، المطعم الأنيق الذي يقع على الجهة المقابلة من الشارع، يقوم بإغواء الزوجة الشابة الريفية. أما الزوج ذو الديون المتراكمة، فيظن بأنه قد تم خداعه، ويقتل زوجته بطلقة مسدس.

حبكة الفيلم ليست مثيرةً بدرجة كبيرة، أما البطل الرئيسي والموضوع الأساسي فهو المقهى نفسه، صالته الكبيرة، حيث يُستعرض الصحفيون، وساعي البريد، ومُحصّل الضرائب، وموزّع البضائع، وحارس العقار، وسائق التاكسي، والمتسوّل، وأصحاب المحلات، والجيران، والفيلسوف السكير، وفريق الاستعراض، والعاشقة المهجورة، جميع أولئك الذين يرتادون عادةً هذا الجوار، في مشهد واحد مستمر. تحكي الكاميرا والحوارات، في لقطات قليلة وجمل حوارية بسيطة لكل شخصية تدخل المشهد، عن حياة هؤلاء وأنانيتهم، أولئك الذين يختلطون، أو يصطدمون، أو يتجاهل الواحد منهم الآخر. دخول وخروج للشخصيات ينقل الحياة التي في الخارج لهذا الحيز المغلق. في الفيلم تأريخ لطبيعة الحياة العامة، فالمقهى كونه اجتماعي مصغر، وصالته مسرح للشخصيات المختلفة. الجميع يكشف عن نفسه بداخله. النادلان، «جول» الأصغر سنًا نادل الكاونتر، و«فيكتور» العجوز في صالة الطعام، يلعبان دور الجوقة الغنائية في المسرحيات الكلاسيكية.

لا زال مقهى كادران في مكانه، في شارع دونو. ثم يأتي أمر صغير مخيب للآمال: ديكور الفيلم هو إعادة بناء في استديوهات «بولوني» لما كان عليه المقهى في العام 1946 - سنتظر لبعض الوقت حتى يعود أبناء «الموجة الجديدة» في صناعة الأفلام إلى استخدام الديكورات الطبيعية، حتى لو استطاع أصحاب هذا الزمن أن يتقنوا الخداع السينمائي. حين أذهب إلى المقهى، ينتابني شعور بالغرابة. هل هو المقهى الحقيقي أم مجرد دبلير له؟ كأن المكان هو الذي قام بتقليد النسخة السينمائية. لا، عليّ أن أجتهد في إقناع نفسي، لم يحدث أن صُوّر الفيلم في هذا المكان، لقد تم استبدال الديكورات والتنسيق الداخلي. (ما الذي كان عليه قبل الاستبدال؟) ما الذي كنت أمل في وجوده هناك؟ حتى النادل، لا يعرف الفيلم. بالكاد اهتمّ بمشاهدة صور الفيلم التي أطلعت عليها. إنه قديم للغاية، هكذا قال لي. لم يسمع عنه إلا القليل.

## وحدة الزمن

في إحدى قصصه القصيرة، الأكثر جموعًا في العالم، يتخذ سيمينون من مقهى يقع في جادة «سانت - جيرمان»، على ناصية شارع «سانت - بيرى»، إطارًا لقصته. يجعله مقهى نصف أسطوري، نصف واقعي، مُستعيرًا موقعه من مقهى «روكيه»، واسمه، «الوزارات»، من مبنى قريب من شارع الجامعة، القريب جدًا. تبدأ القصة في اللحظة التي يُفتح فيها المقهى، الساعة الثامنة صباحًا، وتنتهي مع لحظة إغلاقه، في منتصف الليل.

ترتكز هذه القصة البوليسية على السلوك الغامض لزبون يقضي اليوم بطوله، ست عشرة ساعة على التوالي، جالسًا بلا حراك على الطاولة نفسها، آتياً بردود أفعال تتسم بالفضول، بالإزعاج، ما يُثير قلق «چوزيف»، نادل المقهى. أما التحوُّل النهائي المفاجئ في الأحداث، الذي هو جريمة قتل، فيحدث على رصيف المقهى، عقب مغادرة الزبون المريب.

(من المؤسف أن سيمينون لا يتمسك حتى النهاية بما راهن عليه منذ بداية كتابة القصة، أعني بوحدة المكان والزمان، إذ يُضيف فصلين آخرين حتى يشرح - بجهد واضح - هذا اللغز، مازًا بأماكن أخرى، في زمن لاحق).

## «مقهى «باريس روما»، رواية»

لطالما حلمتُ بكتابة رواية عن أحد المقاهي، أو عن الكومبارس المتواجدين فيه. رواية تدور أحداثها في مكان واحد، في يوم واحد. سيكون للمقهى موقع محدد يمكن التعرف عليه، وأجواء تتطابق مع مكان واقعي موجود بالفعل، سأسمي الرواية باسمه. لا زلتُ مستمرًا في البحث عن هذا المكان. أتردد بين اختيار مقهى «لو جينيرال

لا فايت»، «لو فارين»، «لو وبيلر»، «لو كانون دي جوبلان» - استبعدت مقهى «روبيس» لما يترتب على ضيق مساحته من صعوبة إضافية (إنه في حجم خبر عابر)، تتمثل في حرمانه من عناصر هامة مثل التراس، كما أنه صار أقل ترحيبًا بالزبائن منذ تغيّر الملاك). في المقابل، هذه الرواية يلزمها مقهى عادي، ليس له تاريخ، لا ذاكرة ولا علامة محددة، مقهى لا يظهر عادةً في أي دليل إرشادي. «مقهى باريس روما، رواية»؟

نعم، قد تجري هذه الأحداث هنا بالتحديد، عند الناصية التي تلتقي فيها جادة مع شارع، في مقهى مثل أي مقهى آخر في الجوار، ندخل إليه دونما اختيار حقيقي، لمجرد وجوده هناك، في طريقنا. له تراس ممتد بطول واجهته، تصطف طاولاته في صف واحد طويل حتى لا تمثل عائقًا في طريق المترجّلين. حين يكون الجو لطيفًا، نفتح النوافذ الزجاجية على الجانبين.

في الداخل، جدران مكسوة بالتجاويد الخشبية الفاتحة المنقوشة بزخارف دقيقة. أرائك ومقاعد باللون البنفسجي الفاتح الذي يُحيل رأسًا لملابس النُدُل (مارتا، ماريو، نينا، إتيان، جيلبير، غير أن طاقم العمل يتم استبداله طوال الوقت. وعلى سبيل الفضول أسجّل التالي: «كريستين»، من أصل تايلاندي، أتت إلى هنا قبل عامين تحمل اسم «كريستيان». صار «تحولها» اليوم مُكتملًا). الطاولات من الخشب المصقول بدهان لامع. أليكات جانبية وثرّيات معلقة من السقف تُضاء حتى في وضح النهار. الأثاث عالي الجودة بحق. للمقهى صالتان. الصالة الأكبر تطل على الجادة الجانبية، ولها، في أحد أركانها، تجويف مثل كوة في الجدار، وحمام صغير محجوب بستارة مُعلقة يعلوها رفٌ يجلس عليه ديك. الصالة الأخرى أكثر ضيقًا منها، لكنها مع ذلك أشد إضاءة، تطل على الشارع الجانبية، يُسمونها «لا لوجيا». المرايا الكبيرة عليها نقوش صفراء وحمراء مرسومة باليد. زجاجات شامبانيا. كوكتيلات. زجاجات نبيذ. شطائر لحم وجبن. لوحات. طبق اليوم. على حائط الممر الواصل بين الصالتين، ثمة صف من الزخارف النباتية الملونة. حرّر نفسك. استنشيق. ادفع. تذوّق. وصف آخر، في الصالة الكبيرة، منقوش عليه أسماء

نباتات عطرية. روزماري. كراث. غار. بقدونس. ثمة لوحات كبيرة ذات ألوان مبهجة علقها المدير الجديد، مستوحاة من الـ«بوب آرت»، تعرض على خلفية إعلانية صور «بريجيت باردو»، و«چيمي إنديكس»، و«كولوش»، على نمط يتضارب مع هذا الديكور التقليدي. فوق الكاونتر، ثمة صورة فوتوغرافية صغيرة معلقة بداخل إطار، ليست نظيفة تمامًا، تُظهر واجهة المبنى بعد تدميرها بالانفجارات والقذائف وقت تحرير باريس. لوحات هنا وهناك تعرض المشروبات والمأكولات. إسبرسو وقطع البيتي فور، 6.5 €. كير رويال، 7 €. سالير، 4 €. بيرة، 6 €. طبق تاباز أسبانية للمشاركة، 5 €. البطاقة التي توضّح قائمة الطلبات موجودة، في وضعها الرأسي، على طاولة صغيرة لشخصين. الأسعار معقولة.

الموسيقى تُلعب طوال الوقت لكن دون إزعاج، عند طاولة الكاونتر، بحيث لا تُشوّش علي رواد الصالة الكبيرة، التي تقع على الجهة المقابلة. ثمة لافتة صغيرة مُغطاة بالزجاج معلقة في الركن الخلفي للصالة. الضوابط المنظمة لتقديم الخمور ومكافحة السُّكر في الأماكن العامة. ساعة الحائط المعلقة، قبالة السلم الهابط إلى التواليت، تُصنّر على فارق العشر دقائق المتأخرة. إنه مخزون أكبر من اللازم يفتح الباب لاحتمالات روائية لا حصر لها. يُغلق المقهى أبوابه في تمام الواحدة صباحًا.

تقع أحداث الرواية اليوم، في الزمن الحاضر. لن أخلق فيها شيئًا - بل سنُكتب يومًا بيوم، في زمنها الواقعي، وستبقى غير مكتملة. شخصياتها، المجهولة، تستطيع أن تدخل، أن تخرج، أن تعاود المجيء، أما الراوي، بروح مُخبر سريّ، فس يبقى في مكانه، منذ الصباح وحتى المساء، حتى يستقصي لغز المكان والبشر العاديين، مُدوّنًا ملاحظاته. سيلتقط بعض الأدلة الصغيرة. سينتشر في الإخفاء. إنها رواية ساكنة لا تتحرك، حيث لا يعبر أي شيء، إلا الحياة، المتقطعة. إنها نوع من السجلات ذات التدوين الموجز والمُراوغ. أو ربما قصيدة. ماذا لو أننا نظرنا عن قُرب، أقصى درجات القُرب، ألا يكون التوثيق الأكثر التزامًا بالحقيقة أشبه بالخيال - مشحونًا بالروح الروائية؟ هذا الكتاب، المكوّن من مئات الصفحات، سيكون مثيّرًا وممتعًا لدرجة التهامه في جلسة واحدة. سيلقى الكتاب نجاحًا هائلًا، بكل تأكيد.

## أشباح وكومبارس

أحلام في اليقظة، وأخرى في النوم، كلاهما يجد طريقه إليّ. مكاتان محددان من المدينة متناقضان في كل شيء، لكن عادةً ما يكونان متجاورين وجهًا لوجه، إنها المقاهي ذات الواجهات الشفافة، المفتوحة على الطريق، والمقابر ذات الأسوار المرتفعة، وكثيرًا ما أرتاد هذه وتلك. أذهب رواقًا وجيئةً فيما بين الاثنين دون انقطاع. هذان هما قطبا الخيال بالنسبة لي.

يروقني، فيما أجلس إلى الطاولة، أن أتأمل الجميع من حولي، الأحياء، المجهولين، وأن أستعيد ذكرى أولئك الذين اختفوا عن المشهد، الذين نسيناهم، تحت رخام المقابر، مثلما يتعاقب النور والظلال، النهار والليل. أتحرك بين الهياج والصمت. بين الحاضر والماضي. ألتقي وجوهًا جديدة، ثرثرة، وأقابل أشكالًا قديمة أعرفها، صامتة، شبه مطموسة. أصير هنا وهناك. برفقة الكومبارس والأشباح على السواء. أنصتُ إلى البعض، وأدعو البعض الآخر إلى الحديث. ويبقى حضورهم متساويًا بالنسبة لي.

## عابرات، في مقهى السيدات

عدد قليل من الطاولات، التي في التراس، لا يزال شاغراً، في شارع «دو فيليب». السماء عالية جداً فوق المباني المحيطة، والرؤية لا يقطعها شيء حتى مفارق الطرق. النادل يكنس الأرضية، وينتهي من رص المقاعد والطاولات. يرتدي قميصاً أبيض أبيضاً مع بايون. يوزع منافض السجائر هنا وهناك. أخطط لكي أدخن أول سيجارة في مكان مُشمس. على الرصيف المقابل، يطلع الناس من محطة المترو، يشترون الجرائد من الكشك، ينتظرون أمام إشارة المرور، يعبرون الشارع، في خطوات متساوية. يأتون هنا لمقابلتي. فقد امتهنتُ المراقبة. أشاهد، بعينين مُشرعتين عن آخرهما، أنا رقيب.

طلبة المدارس الثانوية، الذين يقطعون الشارع ركضاً. رضيع بداخل عربة أطفال، بقدمين مُعلقين في الهواء. شخص موشوم يهرول ببطء، يضع خوذة على أذنيه. رجل عجوز، يرتدي قبعة من القش وحذاء رياضياً. سيدة تحمل كتاباً بيدها وتدس أصبعها بين صفحتين، تتردد في اختيار الطريق الذي عليها أن تسلكه. وأخرى، لها شعر أحمر، تُسرح شعرها أمام إحدى الفاترينات.

كل شيء في مكانه الصحيح يسير بتناغم ميكانيكي يُعيد اختراع نفسه طوال الوقت. يتحركون في مسيرة، يعبرون أمامي. أنا اللا مرئي. طفلتان صغيرتان تُشمّران التيشيرت وتعرضان سُرتيهما ضاحكتين. رجل يحمل جراب آلة كمان. أشخاص يرتدون الفانلات، وآخرون الجاكيتات. لا نعرف ملابس محددة لهذه الفترة، بين الموسمين. لن أتعب أبداً من تدوين تلك التفاصيل. غير أنني سأعلق فقط بأولئك العابرات. هن ملجئي. أصاحبهن لمسافة أمتار، أندس بجانبهن، قبل أن يختفين، ويصبحن خارج مجال رؤيتي. نساء أشبه بلحظة خاطفة.

إحدهن تضع نظارة سوداء كبيرة. الأخرى لديها ساقان جميلتان لأبعد حد. تحيط طفلاً ضامّة ذراعَيْه. يتنفس النسيم فيرفع فستانها. يندفع شعرها فيلطم وجهها. هذا يُقطب وجهه، لكنني لا ألومه، فلن أجعل شيئاً يُفسد عليّ سعادتي الآتية. هذه تضحك لنفسها، لملائكتها. تلك تتحدّث في هاتفها. أما هذه، ببلوزتها الحمراء التي بلا أكمام، وزجاجة المياه الصغيرة التي في يدها، فتتوقف أمامي، تبتسم في وجهي، دونما سبب، قبل أن تتوه وسط الحشد. بلحنّ وبتوارين. كلهن فائتات طالما سيبقين مجهولاتٍ بالنسبة لي، ولن أتابعهن فيما يكبرن.

إلى أين يذهبن؟ هن على موعدٍ معي أنا ولا يعرفن. أود لو أنني أستطيع إيقافهن، أن أدخل في أفكارهن، أن أشتّم عطورهن، أن أعرف أسماءهن، جرس أصواتهن، نعومة جلودهن. قفن. حوّلن الحُلم إلى حقيقةٍ ماثلة. ألا تتناولن شيئاً؟ بكل سرور. أم يُناسبن الذهاب إلى البيت؟ لِمَ لا. أجري لقاءات كثيرة فيما أجلس محلي دونما حراك. تنصرف كلُّ منهن طاويةً سيرّها. ثمة حمامة تنقر الرصيف أمام قدمي. سيكون اليوم جميلاً بحق.

## فقدان تركيز، في مقهى «شارلوت»

ذهبت لتناول القهوة أثناء انتظاري بداية عرض في صالة السينما، في مقهى قريب على بُعد خطوات، على نفس الرصيف. نادرًا ما أجيء لهذا الحي، وكانت هذه المرة الأولى التي أطأ بقدمي هذا المكان. جلستُ إلى طاولة ناحية اليسار، قريبة من النافذة. كان العالم بأسره مُجتمَعًا بداخل هذه الصالة. أزواج وعشاق، يجلسون متواجهين أو جنبًا إلى جنب. سيدات مُسنات، يشربن الشاي مع قطع الحلوى. طلاب المدارس الثانوية. أشخاص متوحِّدون مثلي. رؤوسهم مُطأطئة، تتطلع في هواتف محمولة، أو ترنو في شرود، صوب البعيد. كانت امرأة قد وصلت للتو، ممشوقة القالب في معطف واقٍ من الأمطار، وعلى كتفها شالٌ نابض بالألوان. راحت تنظر يمنة ويسرة كأنها تبحث عن شخص ما، أو ربما تبحث فقط عن كرسي، لكنها جلست على الكنية. في جلستها كانت تظهر من جانبها. ترددت لبرهة قبل التعرف عليها، حتى صرخت متأكدًا من كونها هي. كثيرًا ما تضرعنا المقاهي في مواقف مثل هذه حيث يكون اللقاء بمحض الصدفة.

كم عامًا مرَّ منذ التقينا لآخر مرة؟ عشرون؟ خمسة وعشرون عامًا؟ أكثر من ذلك؟ على الأقل ثلاثون. كان عليّ أن أحصي الأعوام. رحت أبحث في الذاكرة عن اسمها ... فيما ألقت هي بنظرة غير مكترثة إلى الصالة، دون أن تراني. كان احتمالاً ضعيفًا للغاية أن أعثر عليها هنا. هل تسكن قريبًا من هذا المكان؟ هل تعمل هنا في الجوار؟ لقد تقدّم بها العمر، دون شك، لكنها لم تتغير كثيرًا. صار شعرها أقصر الآن، يُناسبها تمامًا. ما زالت رشيقة. أنيقة. جامدة قليلًا. أنزلت شالها ومعطف المطر عن كتفها، طوتهما باهتمام وترتيب ووضعتهما بجانبها، على الكنية، كاشفةً عن چاكيّت أسود فوق بلوزة بيضاء. شرعت تُقلب صفحات مُفكرة أخرجتها من الحقيبة مع قلم ذهبي صغير، ثم أخذت تُطالع هاتفها المحمول. «چين»، هذا هو الاسم. بدأت الذكريات تعود إليّ على هيئة ومضات، تزداد دقةً مع كل ومضة. كانت تُمسك بملعقة في يدها اليسرى، نعم، لقد كانت عسراء بالفعل. سوار فضي كبير، إنها أسيرة الأسورة كما كانت تقول. أقراط كبيرة الحجم، مثل تلك التي كانت تحتفظ بها في أذنيها حتى أثناء النوم، وكنتُ أندهش من كونها لا تُضايقها. وضعت الكثير من السكر في كوب الشاي، وطلبت المزيد من النادل. جسد مثالي، أخذ أنفاسي حقيقةً، من أول وهلة. لطالما كنتُ واثقًا من كوننا سنلتقي مجددًا، أن علاقتنا لا يمكن أن تنتهي بهذه الطريقة، لكن بعدها، قليلًا بقليل، تجاوزت الأمر.

قد تكون في انتظار شخص ما. نهضت استعدادًا لأن أذهب لطاولتها. شاعرًا بشيء من التهديد. أحسست باقترابي، حين صرّت واقفًا أمامها فرفعت رأسها وحدقت فيّ. «چين؟»

كانت تبدو مندهشة، متضايقة، غابسة قليلًا، عصت شفيتها كما كانت تفعل كثيرًا. ابتسمت لها. «نعم؟» قالتها بقسوة نسبية، كوسيلة دفاع. لم تتعرف عليّ. كان لسماع صوتها وقعٌ ضربة هينة في القلب. لقد أتى من مسافة بعيدة للغاية، وصار هنا، على نحو مفاجئ. «هل أستطيع الجلوس؟ هل يُزعجك ذلك؟» «كلا... في الحقيقة، نعم... أنت...» لقد فاجأها باقتحامي، لذا أغلقت هاتفها المحمول، ووضعته بجانب المفكرة. بقينا ننظر لبعضنا البعض. لطالما كانت جادة جدًا على هذا النحو. عيناها تُعيدان اكتشافي، تُعينان موضعي، تذلان جهدًا واضحًا، تتوخيان الحذر، يتشوّش ذهنها، من أي ماضٍ عدت إليها، ربما تشك في كونها تُجرّج الآن إلى فخ، تتفكر في طريقة للتعامل مع هذا المقتحم، لم يكن لديها الوقت الكافي لتستعد.

هي لا تزال فاتنة بشدة. ربما تدلت ملامحها قليلًا جدًّا، بالكاد. هذا ما يجعلها أكثر تأثيرًا، مع هذا الثقل لمرور السنوات. تجاعيد قليلة، نحيلة للغاية، عند حافة الجفون. بدأت تبكي ببساطة، وفي صمت.

لا عليك، إنها مجرد حساسية، قالت، ستزول الآن. ماركة النظارة ظاهرة، على جانبي الأنف. كانت قد وضعتها بالفعل من أجل القراءة. شعرها كان أغمق من أن يكون غير مصبوغ. نفس نُقرة الذقن التي كانت تمرر عليها أصبعها حالما ينتابها الشرود في منتصف إحدى المناقشات. يداها، عليهما المزيد الآن من البقع البنية، التي لا تعرف الخداع. «إنه من المضحك أن نلتقي بهذه الطريقة...» كانت ابتسامتها مزمومة، كأنما تمنعها من الظهور. من جديد أخذت تزم شفيتها. «ما الذي تفعلينه هنا؟» هزت كتفها في لا مبالاة. «أعيش في ستراسبورج...» إنها مازة فقط عبر باريس، لبضعة أيام فحسب، في ضيافة صديقة. «ما يجعل الأمر أكثر غرابة أن نلتقي...» تستمر في التحديق فيّ، كأنما في الفراغ. «وما الذي حدث معك؟...» أخذت تُدور الملعقة بداخل كوب الشاي. «أوه، أنا...» لا تزال تُحدّق، لا تزال تتوخى الحذر، لا تريد لأي شيء أن يظهر عليها. «وحضرتك؟ ... أعني وأنت؟...» لم يكن ثمة بد من أن تُخطئ. هل تغيّرت إلى هذا الحد؟ أخذت رشفة من الشاي، حتى تُعين نفسها على استعادة الهدوء، وكرمشت مغلف السكر الفارغ. هل عليّ أن أذكرها بغرفة خادمتي، في شارع «دارو»، حيث لحقت بي ذات مساء؟ بدأت أذكر أمامها بعض الأسماء، إذ ربما تُساعدنا على التذكر. «باستيان؟ هل تذكرينه؟... صادفته مرة أو مرتين... هو دائمًا كما هو. وماتيلد؟...» تبدو وكأنها بدأت تسترخي. «نعم، ماتيلد... استمررت في لقائها

لفترة، كنا أصدقاء مقربين للغاية... لم أعد أعرف أي شيء من أخبارها». و«فانسان؟» لقد اختفى، نتيجة حادث، منذ سنوات قليلة...» بدا أنها لم تكن تعلم، أو ربما نسيت. مرَّ وقت طويل بالفعل «منذ قُطِعَت العلاقات»، هكذا قالت لي.

يلمع بريق ما في عينيها، ثم ينطفئ، تتجمد في مكانها، الآن أفهم الأمر. من الجائز ألا تكون قد نسيت أي شيء. إنها تربط بين الوجوه والأسماء. فما الذي تتذكره إِدًّا؟ هل هي اللحظات السعيدة والتعيسة؟ «وما الذي فعلته... بعد ذلك؟» «القليل من كل شيء، لا شيء ذا أهمية...» إنها تترقَّب ردة فعلي، تراقب نفسها مجددًا. «التدريس، أمضيْتُ فيه سنتين... لم أخلَق لهذه المهنة... الصحافة، عملتُ في مجلات اختفت بعد قليل... الآن، أعمل في دار نشر... تنشر للناشئة... ليس ثمة عملٌ جليل». «هل تزوجت؟» «نعم، تزوجت... لم يستمر ذلك طويلًا...» لديها طفلان، ولدان. «الاثنان خارج البلاد...» «هل أنت بمفردك؟» غامت عيناها، أدارت رأسها، إنها تحاول أن تتمالك نفسها. تُطلق ضحكة مقتضية لها رنين زائف. «لا بأس...» أحكي لها القليل عن حياتي، رغم أنها لم تسألني عن أي شيء. يدور الناس من حولنا، يتحدثون بصخب على الطاولة المجاورة. قصص عائلية، أو لها علاقة بأماكن العمل. تفرك يديها بعصية. تومئ برأسها باصطناع. لا تهتم حقيقةً بما يُقال. إنها لا تسمعي من الأساس. ما الذي تُفكر فيه؟ إنها ليست في شارع «دارو». تهيم نظرتها فوق كتفي. إنها غير مرتاحة، كأنما تخشى أن يُفاجئنا شخص ما. «وماذا عن ستراسبورج؟... الناس... عملك...» غير أنها لم يُعد لديها المزيد كي تُخبرني به.

صمت، مُحرج. تُلامس نُقرة الذقن بإصبعها. تُنهي كوب الشاي باشمئزاز، لقد برد. يمر النادل بجانبنا، ويسأل إن كان بإمكانه أن يُخلي الطاولة التي تركتها هناك. أطلب فنجانًا آخر من القهوة حتى يمتد بنا الوقت. على أي حال، تأخَّر الوقت عن اللحاق بالسينما، لقد بدأ العرض بالفعل. «ألا تطلبين شيئًا آخر؟» «لا، لا شيء... شكرًا». أتكى بمرفقي على الطاولة، أميل تجاهها، تتراجع هي إلى الخلف، تشد نفسها، تتململ بقلق، تتظاهر بالنظر في ساعتها، تفتح حقيبتها. «أعتذر منك... لا بد أن أذهب...» توِّع هاتفها المحمول في الحقيبة، والمفكرة، وتُخرج محفظة النقود. أوقفها بإشارة مني. «لا، دعي عنك...» لا أجرؤ أن أطلب منها رقم الهاتف والعنوان. تنهض واقفة، تضع واقي الأمطار وتلفُّ الشال على كتفيها، مع ذلك، تُعطيني قُبلةً مختزلة على خد واحد. رائحة عطر. «شكرًا... على الشاي... إِدًّا إلى اللقاء». أنظر إليها فيما تذهب مُبتعدةً، من ظهرها. وقبل أن تعبر الباب، تتلفت إلى الورا، بالكاد يظهر ذلك.



## حُب ما بعد الظهيرة، في مقهى الطيور

دائمًا ما تصل أولًا، بعد الثالثة عصرًا بقليل. شقراء، دقيقة القوام، ترتدي بنطلونًا من الجينز وچاكيتًا جلدنيًا، الشعر، رقيق جدًا، مرفوع لأعلى في كعكة مستديرة تمنحها مظهرًا حكيمًا للغاية، لها وجه دمية بعينين كبيرتين. يكون المقهى هادئًا في هذا التوقيت. تجلس إلى الطاولة نفسها، في منتصف الكنية تمامًا، قبالة الباب المطل على حديقة الميدان، تطلب كوبًا من البيرة.

من أين تجيء هذه الفتاة؟ من مدرسة «چاك ديكور» الثانوية، بلا شك، وهي على مسافة خطوتين من المقهى، تحمل حقيبتها المدرسية، تلك التي تُعلق على الكتف. لكنها ليست من النوع الذي قد يعمل بالتدريس - ما لا يعني أي شيء. ما المجال الذي يُمكن أن تُدرّسه؟ التاريخ، الأدب، قد تكون الفلسفة، لنلعب قليلًا بفكرة الوظائف... لا يمكن لتلاميذها إلا أن يُغرموا بها. إذ كيف يمكنهم ألا يفعلوا؟ حان وقت إصلاح المكياج، كانت تلفُّ نفسها سيجارة، حين انضمَّ إليها وجلس ليس على المقعد المقابل بل بجوارها، ألصق نفسه بها، لتَمَّها. لا بد وأن يكون أكبر منها بعشرة أعوام، له خُصلة شعيرٍ كبيرة تميل على جبهته، ونظارة صغيرة مدوّرة، وحقيبة من الجلد تُعلق على الكتف، وچاكيت من جلد الشامواه لم يُبالِ بخلعه من عليه.

كان يجد صعوبة واضحة في تمالك نفسه، يده المستريحة فوق عُنُقها سرعان ما اتخذت طريقها هبوطًا بسرعة، تمهّلت قليلًا عند صدرها، ثم انزلقت حتى جانب ردفها، وارتاحت أخيرًا بين فخذيهما. كان لديهما ما يكفيهما من الوقت. أخذ المدير يراقبهما، يتعمّد المجيء بنفسه لتزويد البوفيه بأدوات المائدة، على مقربةٍ منهما، مُحدّثًا الكثير من الضوضاء، عابثًا بوضوح، إنها طريقته في إخبارهما بضرورة طلب أي شيء على وجه السرعة. استدركا نفسيهما، تباعدا للحظة كما لو كانا تلميذين ضُبطا فيما يرتكبان خطأ ما، قبل أن يعاودا التقبيل لجولة ثانية، لمدّة طويلة هذه المرة، ثم يعودا للمسّات، مع القليل من الكلمات، والتحديد في العيون. انتهى بعد ربع ساعة، ونهضا واقفين، تولى الرجل دفع حساب المشروبات، رأيتُهما يغادِران عبر زجاج المقهى، يمشيان بمحاذاة سور الحديقة في الميدان، حاملًا حقيبتَها فوق كتفه، فيما يسيران مسرعين، يدًا في يد.

صرْتُ ألاحظهما لمدة شهرين أو ثلاثة أشهر، كنت أذهب بانتظام إلى ذلك المقهى، في نفس التوقيت، جميع أيام الخميس. ربما كانا يجيئان في أوقات أخرى من الأسبوع، لست على يقين من ذلك. كان كثيرًا ما يحمل معه هدايا صغيرة مُغلّفة بعناية، مربوطةً بأشرطة جميلة الشكل. كتب. إيشارب. قلم.

زوج من الأقران، ترتديه هي في الحال، فيما تستدير صوب المرأة الكبيرة، وتنزع قرطها الذي ترتديه. كانت تُبدي اعتزازها على نحو واضح، تمشق جسمها في زهو، وتبتسم. وحالما ينهضان كي يُغادرا، كنت أتبعهما إلي الخارج، وأراهما يدخلان أول فندق يقع على الطريق، على مسافةٍ بعيدة قليلاً من المقهى، في شارع «ترودين».

وصل ذات يوم متأخرًا مدة نصف ساعة. كانت قد فرغت من كوب البيرة منذ وقت طويل. جلس قبالتها، وطلب فنجان قهوة لم يمسه من الأساس. أخذ يتحدث إليها بنبرة خفيضة، يبحث عن يدها فوق سطح الطاولة، تلك التي ظلت تسحبها إلى الورا. قدّم لها علبة هدية لم تهتم بفتحها. لم تفه بأي شيء.

دفع حساب المشروبات. تمهّلت حتى ينهض من مكانه، ثم غادرت الصالة، حتى تُطلق سراح دموعها فيما تمشي مطأطئة رأسها.

في الأسبوع التالي وصلت في نفس الموعد، في يدها حقيبة صغيرة، واتخذت نفس المكان. ظلت جالسةً على الكنب لساعتين على الأقل. طلبت كوبًا آخر من البيرة. لم تتوقف عن التحديق في باب المقهى وفي الرصيف المقابل، تُدير كوبها حول قاعدته، في انتظار اللاشيء، كانت تعلم ذلك جيدًا.

استمرّت تأتي لمدة أسابيع، صارت تجلس الآن على المقعد، على الجانب المقابل، ظهرها إلى الجهة العكسية، وجهها إلى الصالة. تجلس دون جِراك، لا تفعل أي شيء. تطلب كوبًا من البيرة لا تحتسيه. تلاقّت أعيننا حين دفعت الباب وهي تدخل المقهى، لكننا أبدًا لم نتحدّث. من الشاعر الذي قال ذات يوم: «مَن لا حبيب له يسكن في المقاهي»؟

(علمتُ فيما بعد كيف حدث في هذا المكان، في ميدان «أنفير»، في مقهى «الطيور»، في التاسع والعشرين من مايو، 1934، في منتصف الليل، أن التقى «أندريه بريتون» مع «چاكلين لامبا». «حوريتته»، «مديرة شؤون زهرة عباد الشمس الليلية خارقة القوة»، التي صارت فيما بعد زوجته الثانية، ما عبّر عنه في رواية الحب المجنون).

## البرقوق، في مقهى «أثينا الجديدة»

لوحة مانيه، البرقوق، تُصوّر شابة شقراء في رداء وردّي، تلفُّ حول رقبتها ربطة عنق بيضاء، وتضع قبعة صغيرة مزينةً بشريط لامع. تبدو الشابة شاردة النظرات، تستغرق بنعومة في تفكيرها. تمسك بسيجارة في يدها اليسرى. أمامها كأس من البراندي على الطاولة الرخامية. الديكور المحيط بها أحد أركان الصالة في مقهى «أثينا الجديدة»، الكائن في ميدان «بيجال»، والذي أعيد تصميمه ليصير أتيليه لرسامي شارع «سانت بطرسبورج». الشابة ثابتة في مكانها، لم تمس كأسها بَعْد، ولا أشعلت سيجارتها.

كان النساء يُثابرن لكي يُحررن أنفسهن في ذلك الوقت، يدخنن، يشربن، في أماكن عامة، يرتدن المقاهي، حتى لو كنَّ بمفردهن.

هي أيضًا تنتظر. أحد رواد المكان؟ لا أحد يعلم. لا تبدو عليها الحدة. هل تعمل في مجال الأزياء؟ هل هي بغيّ؟ ليس ثمة فارق واضح بين الحالتين، بعيدًا عن أوقات الذروة، وفي هذا الحي بذاته. تبدو غامضة. كتومًا. لا تتعمّد الإغواء. لا تضع أقراطًا. لا حُلّيّ. شفاتها بالكاد ورديتان، على طبيعتهما. ذهنها شارد في مكان آخر. تفكير بعمق. ربما لا تنتظر أي شيء. تترك الوقت يمر فقط. رأسها المائل قليلًا والمسنود على يدها اليمنى، في انحناءة فوق الطاولة، يوحى بالكآبة. مع أن الكآبة لا تناسب هيئتها على الإطلاق. عادةً ما تتحلّى باللياقة الكاملة. بل تكون حيويّةً لعويًا. غير مهذبة. ما لم تكن بالكاد ترشف من أول كأس. ربما لديها ما تود لو تنساه. يوم عمل ثقيل. أو شخص ما. شخص هجرها. أغضبها. لكن مع كل هذا الوردّي، كل هذا البياض، هذا الشقار، هذا النور ... إنها مجرد لحظة غياب، حُلْم يقظة، حالة وَهْن، أو وجوم. تشوّش للروح، لا أكثر من ذلك.

عنوان اللوحة مستوحى من نكهة البرقوق في مشروبها الذي تتهيأ لاحتسائه. غير أن الاسم يُناسبها لدرجة بعيدة. بأنفها القصير، المرفوع على نحو لطيف، وأيضًا وجهها المرح. من الجائز أن يكون اسم الشابة نفسها «برقوقة». أو كنية يطلقونها عليها. «البرقوق».

(في «الحياة الواقعية»، كان اسمها «إلين أندريه»، وكانت تبلغ من العمر اثنين وعشرين عامًا، تعمل بالتمثيل. هي التي أدّت دور «مدام بولينجران»، في المسرحية التي ألفها «جورج كورتلين»، لكي تُعرّض على مسرح الـ«جراند جينبول»، ومدرسة الـ«شابتال». إنه مسرح الرعب، حيث كانوا يقدّمون أدوارًا تُخيف الجمهور. أما هذه المسرحية فكانت كوميدية. وهو

اختصاصها التمثيليّ. مثّلت شخصيات لـ«ساشا جيتري»، و«چول رينار»، وكانت ممثلة صامتة في مسرح «لو فولبي بيرجير» الغنائي. دائماً لأجل الضحك. عملت أيضاً كموديل تصوير مع المصوّر «نادار». كما عملت كموديل مع عدد من أصدقائها الرسامين، مُنتقلةً من لوحةٍ لأخرى. مع «رينوار» في لوحة مادية غداء في القارب الاحتفالي وكذلك لوحة بعد الغداء، مع «ديجاس» في لوحته شراب الأفسنت، مع «مانيه» في لوحة في المقهى ولوحة في بيت الأب لاتويل. جميعها مشاهد بداخل المقاهي، كانت مُرغمة لأن تحبها. في لوحة رولا لـ«چيرفكس»، تظهر هي بنفسها، عارية تماماً هذه المرة، مستلقية على ظهرها، في الفراش، عقب ممارسة الحب، ساقها منفرجتان قليلاً، بفخذ واحد مرفوع. طلبت إلى الرسام أن يستبدل بوجهها وجهًا آخر حتى لا نتعرف عليها. الأخرى، باستثناء البعض ربما. لذلك وضع الرسام رأس امرأة أخرى ذات شعر داكن بدلاً منها. نعم، البرقوقة. ابنة مقهى «أثينا الجديدة». تبدو مناسبة تماماً لأجوائه).

## ناديا، في مقهى «ويبلر»

حين التقت مع «أندريه بریتون»، في الرابع من أكتوبر، 1926، كانت «ناديا» تقيم في غرفة صغيرة في فندق «دو تياتر»، في شارع «دي شيروا»، المواجه للمدخل الخاص بالفنانين في «مسرح الفنون»، الذي يُسمّى اليوم «إيبرتو»، ويطل على جادة «باتينول». كان عمرها أربعًا وعشرين عامًا، تُعاني شظف العيش، تنتهز بعض الفرص، ترتاد دوائر الخارجين عن القانون، لكنها ظلت تحلم بالمسرح. كانت ترغب في أن تصبح مُصمِّمة أزياء للممثلين، أو راقصة استعراضية، وربما كانت تعمل كومبارسًا من لآخر. ظلت تقضي نهاراتها في السير في شوارع المدينة، من مقهى إلى آخر. وكثيرًا ما كانت تجلس في مقهى «ويبلر»، في ميدان «كليشي». أما «بريتون» فكان يقطن في 42 شارع «فونتين»، المتفرع من ميدان «بلانش». لذا فالمقهى يتوسط المسافة بين مكاتبي إقامتهما. لا يستغرق الوصول إلى المقهى من هنا أو هناك مشيًا على الأقدام إلا دقائق معدودة. ربما يكون قد التقاها على الطريق في ذهابه أو إياها قبل أن يتعارفا. كتب واحدٌ من خطاباتها الموجهة إليه على ورقة عليها بيانات المقهى. كعلامة. كتذكار، يُذكره بها.

«ويبلر»

مقهى - مطعم

14، ميدان كليشي - باريس

تليفون: ماركاديه 89 02

أندريه الذي لي

أشعر بالبرد حين أكون بمفردي وبالخوف من نفسي... حين تكون هنا...  
تكون السماء ملكًا لنا وحدنا... ولا نكون أكثر من... حُلْم شديد الزُّرقة... مثل  
صوت سماوي... مثل أنفاسك.

أندريه أنا أحبك. قل لي لماذا، لماذا جعلت عينيّ تتعلقان بك.

ناديا التي لك»

هذا الخطاب ليس مؤرخًا، غير أنه كُتب في الثاني والعشرين من أكتوبر، 1926، كما يظهر من ختم البريد الخاص بالمكتب المجاور للمقهى، «شارع بالو»، والموجود على المظروف الذي يُغلف الخطاب، والذي عليه أيضًا اسم وعنوان مقهى «ويبلر». في هذا التوقيت، كان «بريتون» قد بدأ يتحاشى اللقاء بها. بعد عشرة أيام كانا خلالها يلتقيان كل يوم، أراد أن يُنهي العلاقة معها، صارت اللقاءات تتباعد أكثر فأكثر، حتى تم الانفصال. كانت علاقتهما قد بدأت في ليلة الثالث عشر من أكتوبر، على وجه التحديد، تلك التي قضياها معًا في فندق «سانت - جيرمان - أون - لي». كانت تمارس عليه جاذبية شديدة، هكذا شرح «بريتون»، عن طريق تجسيد «أقصى درجات التشوّق السيربالي، أبعد حدود الفكرة نفسها»، كان يُدرك أنه ليس مُغرماً بها. أما هي فأحسّت بالضياع، بتخليه عنها، تشكو من أنه «تم استخدامها»، من كون حياتها «تتساقط» في التعاسة من جديد. عملت في عدد من الوظائف الصغيرة التي لم تدم فيها طويلًا. دخلت في جولة أخرى من التخبط، والحقارة. الديون. «أشعر بالبرد حين أكون بمفردي وبالخوف من نفسي...»، وحين صارت عاجزةً عن سداد فاتورة فندق «دي تياتر» صار المدير يطالبها بطريقة مهذبة في بادئ الأمر. لكن سرعان ما طردها. «ما العمل؟» كان «بريتون» يقول. لم يكن بيده أن يفعل لأجلها أي شيء، باستثناء المساعدات المادية. كان الوضع «خطيرًا»، هكذا كتب شارحًا الأمر. خطيرًا عليه، وعليها. صحتها الهشة ابتداءً، أخذت تتدهور بسرعة. عادت لمقهى «ويبلر»، وبدأت تكتب إليه، رسائل آلية، حروفها مضاعفة، حتى إنها كانت ترسم له. «قل لي لماذا، لماذا جعلت عينيّ تتعلقان بك». تنتظر طويلًا، خلف طاولة المقهى. كم هي كثيرة تلك النداءات اليائسة.

بعد أقل من عامين، كان «هنري ميللر» هو الآخر يتردد على المنطقة المحيطة بميدان «كليشي» ومقهى «ويبلر». لذا يستطيع إخبارنا عما كان يحدث في حمام المقهى، أو في التراس. عن تجارة الكميات الصغيرة من الكوكايين، مثل تلك التي ساقّت ناديا من قبلي نحو المستودعات التي تُخبأ فيها المخدرات. عن دعارة «البراعات المعطرة» التي تتصيّد الزبائن في المساء، مثلما كان يحدث في السابق في أبهاء الفنادق الكبرى، مثل فندق «كلاريدج»، أو في المقاهي. إنها «بورصة الجنس»، كما كان يقول ميللر.

في أحد أيام سنة 1928، التقى بـ «حسنا فاتنة، تجلس وحيدةً في ركن المقهى». كانت تتسم بـ «الاعتداد والرصانة». مثله جلست تنتظر. كانت حريصة ألا يُقال عنها إنها «تحترف البغاء». اسمها «نيس». «لم يسبق أبدًا أن التقيت بفتاة لها هذا الاسم. إنه أشبه باسم حجر كريم». ومثلما كان حال

ناديا، لم يكن لدي نيس أي معارف في باريس. «سحرنني صوتها ربما أكثر من ابتسامتها». غادرا معًا إلى فندق «بدا كأنها على معرفة تامة به».

تُرى كم لقاء لليلة واحدة قامت به ناديا في مقهى «ويبلر»؟ وأي أنشطة سرية تهورّطت فيها؟ لقد اتخذت قرارها بالابتعاد عن حياة «بريتون». كانت قد تخطت في السابق كل «الحدود». «عقلي يحتضر». بعد أشهر قليلة، وعقب هجمة من مرض الخرف، تم احتجازها في مصحة عقلية حيث ستقضي خمسة عشر عامًا من حياتها، تنتهي بوفاتها في عام 1941. لم يُقم «بريتون» بزيارتها قط.

على أية طاولة من طاولات المقهى كانت تجلس ناديا «ذات العينين السرخسيّين» حين كتبت رسالتها؟ ما عاد المقهى يمدُّ الزبائن بورق ومظاريف مطبوعة بشعار المقهى لكتابة الرسائل. ماذا عن نيس، باسمها الأشبه بـ «حجر كريم» و«صوتها العميق المبحوح»؟ هل كانت تجلس إلى طاولة في التراس؟ أم على الكنب الطويلة في الخلفية؟ أم في الركن، بالقرب من المدخل، بمحاذاة الواجهة الزجاجية؟ لماذا أعطي كل هذا الاهتمام لتلك التفاصيل؟ إنها أشباح مقهى «ويبلر». كانوا هناك، ينتظرون.

## فتيات مقهى «سان سوسي»

كنا نناديها «دومينو»، كانت تعمل «راقصة» في «بيجال». جسدها، الذي ضاعَت معالمه، حين احترق تمامًا، وُجد في الثلاثين من مايو، عام 1959، في الخامسة صباحًا، في غابة «فونتنبيلو». كانت لا تزال تشرب. يُظهر التشريح كيف تُقب جسدها بخمس رصاصات أطلقت عليها من الأمام، غير أن كل هذه الرصاصات لم تكن ما قتلها فقد حدثت الوفاة نتيجة الاختناق.

أشار التقرير القضائي الذي حُرر بواسطة الطب الشرعي إلى ارتدائها في تلك الليلة «حمالة صدر لها دُعامة معدنية، بلوقرًا من الألياف الصناعية لونه أصفر فاتح، معطفاً نصفياً لونه أزرق سماوي ومؤطرًا بالجلد، سروالاً داخلياً أزرق مُنقطاً بالأبيض، تنورة مخططة أفقيًا بالأزرق والأبيض، تنورة داخلية بالدانتيل المكشكشة، حزامًا أسود من البلاستيك. بدون جوارب». تكلمت الصحافة عن «الميتة التي بلا وجه». ثم عن «سندريلا غابة فونتنبيلو» إذ ساعد حذاؤها الخفيف، حين أعيد إلى البائع الذي اشتترته منه في شارع «دوبريه»، على تحديد هويتها. «حذاء موديل «باكارا»، في لون التوت الأحمر، له رباط ولسان باللون الأبيض. مقاس 37».

كانت «دومينيك تيريل» في عمر الاثنتين والعشرين، لها عيان زرقاوان، وشعر طويل، معقود في ذيل حصان، له لون كستنائي داكن. كانت ترتدي تنورات واسعة، مثل «بريجيت باردو». «في الواقع كانت فاتنة»، ما كانت لتعبر مكانًا دون أن تلفت الأنظار إليها. قَدِمَت من إقليم «آردن» الجبلي. أرادت أن تجرب حظها كالأخريات في باريس. ظلت تتردد على مقهى «لو سان سوسي»، على ناصية شارع «بيجال» وشارع «دوبيه»، في مقابل قاعة «تاباران» الموسيقية. هناك رأيناها لآخر مرة، في تلك الليلة الدرامية، في الواحدة صباحًا، برفقة «صديقها» جورج رابان، ذلك الذي ألقى البوليس القبض عليه عند كاوتر المقهى، في منتصف دورٍ من أدوار لعبة الـ421.

كان معروفًا لدى جميع سكان الحي. كان «كهفًا» بسيطًا، صبيًا لعائلة من الأثرياء يحلم بأن يصير رجلًا شديد البأس، حقيقيًا، من شارع «بيجال»، مثل أولئك الرجال الذين يراهم في الأفلام، مع «السيد ماكس»، أو «بوب المقامر»، أو «توني لو ستيفانوا». صار يُلقب بـ«السيد بيل». يقضي نهاره في مقهى «سان سوسي»، حيث يلتقي الفتية الشرسون، أبطال خياله. يقود سيارته الـ«دوفين جورديني» السوداء، يضع مثلهم مسدسًا 7.65 في حزامه، مع نظارة سوداء، وبذلة مفضلة عليه بدقة، بصفيين من الأزرار، وربطة عنق بيضاء، وشعر مصفف إلى الخلف بالدهان، وشارب نحيل. هكذا

تصبح الأبهة كاملة. كان يستعيد ذكريات عمليات السطو الفاشلة التي قام بها، عقب الإفراط في الشراب، والنزهات مدفوعة الأجر، وممازحة الفتيات. في المساء، كان يعود لكي ينام مع والديه، في المنزل الواقع في جادة «سانت جيرمان».

حدث في مقهى «سان سوسي» أن تعرّف إلى «دومينو»، والتي كان «زوجها» يقضي عقوبة الحبس لمدة عامين في سجن «لا سانتيه». تفنّن في إقناعها بانتمائه لنفس الوسط، فقد أراد أن يجعلها تعمل لصالحه. كان لطيفًا معها. على استعداد دائم لحمايتها. غير أنها لم تأخذه مطلقًا على محمل الجد. ما أثار حنقه عليها. لو قام بقتلها، سيقول فيما بعد، «لأنها لم تُقم بإبلاغه بكل شيء». رأينا صورةً له بين عناوين الصحف الرئيسية يتخذ وضعًا واثقًا أمام الصحفيين خلف نظارته السوداء، يداه مكبلتان بالكبشات، السجارة معلقة بين شفتيه، وخاتم كبير في أصبعه. اعترف بمسؤوليته عن إحدى عشرة عملية اغتيال متوهّمة، وتم إعدامه في شهر يوليو من العام 1960 في ساحة سجن «لا سانتيه»، في الرابعة والعشرين من عمره. قال لهم: «هذا أجمل أيام حياتي». تحدّثت الصحافة عن «انتحار تحت المقصلة».

منذ متى هجرت الفتيات أرصفة «بيجال»؟ كُنَّ يُنادَيْن «فيرا»، أو «لولا»، أو «ناتاشا»، أسماء تخصّ المهنة. كُنَّ يأتين للعب الـ «بينبول» ثم يجلسن، بين الممرات، على مقاعد البار الحمراء المرتفعة عند كاونتر مقهى «سان سوسي» حيث كانت أضواء النيون لا تزال تومض في الليل. في الصيف، كنا نترك درفتي الباب مُشرعتين. وعلى الجهة المقابلة، كان ملهى «تاباران» قد تم الاستبدال به بالفعل بمبنى خرسانيّ. وفي الجوار، كان ثمة مخبز يبقى مفتوحًا طوال الليل. أجلسُ على الطرف الآخر من البار أراقبهن خلسةً فيما يضعن المساحيق أمام مرايا الجيب الصغيرة. ثمة أثر لحرق كيميائي يحتل الجانب الأيمن من وجه إحداهن، حاولت إخفاءه أسفل خصلة من الشعر وخلف نظارة كبيرة داكنة. يُدخِرُ سجائر «كرا فان A» الموضوعه في عُلب معدنية. يتحدّثن مع النادل عن تصفيفات الشعر الجديدة أو عن آخر عطلات الأسبوع في «دوقيل». يشربن عصير رمان أو يتناولن قطع نعناع «فيشي مونت». ثمة رشاشات مسيلة للدموع بداخل حقائبهن. أفخاذهن في النيلون المغزول تنفرج أسفل التنورات الجلدية السوداء. هل يعرفن «دومينو»؟ ماذا عن «السيد بيل»؟

## النائمة، في مقهى «قُبَّة دو فِيلِييه»

تبدو في حوالي العاشرة من عمرها. تجلس بمفردها، إلى الطاولة، في خلفية المقهى. تمسك في يدها «تابلت» وتنشغل بإحدى ألعاب الفيديو بكل ما لدى فتاة في مثل عمرها من تركيز، غير مبالية بضوضاء الصالة. أرى معطفها النصفِيّ، من زاوية تميل إلى الخلف، كما خصلات كبيرة من شعرها الأشقر المموج تتدلى فوق كتفها. وقد وُضع أمامها على الطاولة كوبٌ وزجاجة كوكا مفتوحة. ماذا تفعل هنا بمفردها؟ يمر النادل بجانبها، دون أن يُلقي نظرة واحدة. ربما يكون قد تركها لبرهة قصيرة، على أن يعود إليها لاحقًا، ممكن. أو حان وقت ذهابه إلى الحمام، أو قيامه بمهمة عاجلة، على مقربة منها. هي لا تتحرك. انتظرنِي. ابقِي هادئة. لن أغيب أكثر من دقيقة واحدة. لا تبدو قلقةً على الإطلاق، لا بد أنها معتادة على مثل هذا. تجلس منتصبَةً في مقعدها، تستند بساعديها إلى حافة الطاولة، مستغرقةً تمامًا في لعبتها. لا شيء يُشتتها على الإطلاق. من وقت لآخر تنحني قليلًا لكي تحك ساقًا واحدة دون أن تحوّل عينيها عن شاشة التابلت. لا أحد يعيرها أي انتباه.

ببطء بدأت رأس تظهر أعلى الطاولة التي أمامها. رأس امرأة، شقراء مثلها، غير أن شعرها مبعثر دون تصفيف، بوجه يوحى بالقهر، ووجنتين حمراوين، وعينين فارغتين. تنهض في جلستها، خِدْرَةً لا تزال، على الكنب، حيث تستلقي في مكانها لتنام دقائق إضافية. الصغيرة تواصل اللعب. لا تنظر إحداهما إلى الأخرى، لا تتحدثان سويًا. تظل المرأة جامدةً دون حراك لبرهة أخرى، كأنما لتستعيد حواسّها من قبضة النوم. هل هو النوم فقط ما يرسم ملامحها؟ إنها متعبة لأبعد حد. ودون كلمة واحدة، أخذت تُشمّر أكمام البلوفر الواسع الذي ترتديه، وتلمس موضع حقيبتها على الكنب، بحركات أشبه بالتصوير البطيء، وتشرع في تصفيف شعرها، لمدة طويلة. تُعيد إصلاح مكياجها، بتركيز تام. بودرة، تظليل للعيون، طلاء للشفاه. تشعر بتحسن نسبيّ، توضع أغراضها، تحسو بقايا الكوكا من كوب الفتاة الصغيرة، ليس ثمة غيرُه على الطاولة، شبك ذراعِيك، انتظر. تبدو جميلة، الآن. أفاجا بشبابها. هل هي أمها أم أختها؟ إنها لا تنظر حولها. تبذل جهدًا واضحًا كي تقوم على حيلها، إنها ترتدي بنطالًا، وتبدو نحيفة جدًا، توجه كلامها إلى الصغيرة: «هيا، تعالي... سننصرف». تنزلق بين الطاولتين. تقوم الصغيرة بدورها، دون أن تُحوّل عينيها عن شاشة التابلت الذي لا تزال تمسك به بكلتا يديها، وتتبعها، مُتخلفة عنها بمسافة قصيرة، حتى باب الخروج.

## م. ب. في مقهى فرانكير

يضع النادل الصورة أمامي. صورة بولارويد، ملونة. ألقى عليها نظرة. ماذا يريد مني؟ يستغرقني من الوقت مدة لحظات حتى أتعرف على نفسي. بلا شك، هذا أنا في أبهى صوري. رأسي محني قليلاً، مُستغرقاً في كتابة شيء ما في مفكرتي. أنا، هنا والآن، أو قبل برهة قصيرة. الصالة نفسها، طاولة الركن التي عادةً ما أشغلها، كأنها اليوم، المرأة، المشروخة، خلفي تمامًا. سترتي مُعلقة على ظهر المقعد. لستُ أفهم ما يجري. أنهض، سائلًا إياه فيما أحَدِّق فيه. «لم تستوعب شيئًا، أليس كذلك؟». يبدو الأمر مُسلِّيًا له لسبب ما. «إنها السيدة التي كانت تجلس هناك قبالتك تمامًا، على الكنية. طلبت إليّ أن أعطيك هذه الصورة حالما تُغادر».

مكانها شاغر، كل ما تبقى هو الفنجان وكوب الماء على الطاولة، وبعض العملات الصغيرة. تتابني حيرة، وشعور بالمؤامرة، بالضيق، بالقلق بدرجة ما. أعيد التدقيق في الصورة البولارويد، باحثًا عن تفصيلة ما، عن مفتاح، يُساعدني في الإفلات من كل ذلك، كأنني أتعرض لخديعة ما. «هذا كل ما لديك؟ ألم تطلب منك أن تُخبرني بأي شيء؟ - لا. - هل أعرفها؟ - لا أظن ذلك. - وأنت، هل تعرفها؟ - رأيتهُ من قبل. لكنها ليست من هذا الحي - لماذا أنا؟» يهز كتفيه. «لست أول شخص تُصوِّره. سبق أن صوِّرت زبوناً آخر واختفت سريعًا. أتصوِّر أنها تفعل ذلك في كل مكان، خاصةً في المقاهي. إنها حذرة. لا تنتبه إليها عادةً».

بالكاد أتذكرها، امرأة ذات شعر داكن، تضع نظارة، لكنني لا أستطيع تحديد عمرها. ما لون فستانها؟ أزرق؟ لا، أسود. مع جزام أحمر عريض. بالكاد لاحظتها. لا بد أنها كانت موجودة من قبلي حين وصلت. «نعم، بحقيبة على الكتف، إنها امرأة عادية لا تختلف عن سواها، مع ذلك جميلة بحق». يضحك. «أنت أيضًا وسيم. على نحو مساوٍ خذها. ليس ثمة مخاطرة. إنها مجانية. عليك أن تشعر بالإطراء. لو كنت مكانك...».

ألتفتُ نحو الشارع. هل تختبئ في مكان ما، وتواصل مراقبتي لترى ردة فعلي؟ أستطيع أن أركض وراءها، أن أحاول اللحاق بها، أطالب بتفسير، لكن لا، لقد فات الأوان. أنظر مجددًا لمكانها الشاغر، ثم أحَدِّق إلى الصورة. لقد أحسست التقاط الكادر. كما أن الصورة نقية. ليست ارتجالية أبدًا. لقد أخذت كل الوقت الذي يلزمها لكي تُخرجها هكذا. لم أرها تفعل شيئًا من هذا. تركتُ نفسي إلى الذهول. إلى الغيظ. يُمكنني أن أخفيها في أي وقت، أن أمزقها إربًا. أنا الذي يُمضي الوقت في مراقبة، يلاحظ الآخرين...

لماذا تفعل كل ذلك؟ حتى تُلاعب أشباحًا. هل تريد أن تُعلم منطقة نفوذها. أن تبني علاقات خفية لا يمكن رؤيتها. أن تلوّح لي من بعيد. هل ستظهر من جديد؟ ربما تكون مُصورة محترفة، فنانة، تسعى لبناء عملٍ غير مرئي، عمل مجهول، مُشتمّت، لا يبقى منه أي أثر، وأن تتلاشى خلفه.

أنهي قهوتي. يتبدّد شعوري بالانزعاج تدريجيًا. فبرغم كل شيء، لقد أعادت إليّ ما سبق وأن سرقتَه مني. ليست إلا صورة واحدة. بدون نيجاتيف، نسخة وحيدة لا تتكرر، لن تستطيع إعادة نسخها أو تفريقها على الناس. أطمئن نفسي. لست مُتشبّهًا بيد الشخص غير المناسب.

ثم إنها هي من أفكّر فيها الآن كأنما أُنشاهد المشهد عكس اتجاهه، مُحاولًا الدخول فيه. تسقط نظريتها عليّ. يتطلب رسم البورتريه وجود شخصين. نعم، لقد تركت لي ذكرى أمضي معها، وحسرة غامضة برغم كل شيء. ربما يكون هذا ما ابتغته من البداية. أن تُبلبل حالي. أن تدخل خلسة إلى حياتي. لكي تكون مجرد حلم. ليس أكثر من غياب. لو صادفتُها، هل أستطيع أن أعرفها؟ بإمكانني أن أترك لها رسالةً مع الجرسون. أن أضع إعلانًا. أن أنشر بلاغًا. نحن نبحت عن.. امرأة ذات شعر داكن. فستان أسود. نظارة. حزام أحمر عريض.

على ظهر الصورة، تركت عددًا من كلمات، ثلاثة أسطر، بخط اليد، بحروف كبيرة، بيضاء فوق الخلفية السوداء. «مقهى فرانكير - 18 يوليو، 2017 - م. ب.».

## لمبة القراءة، في مقهى الكلب المدخن

على المقعد المجاور لها، وضعت خوذة قيادة دراجة نارية. ترتدي فستانًا، بحمالات رفيعة، مطبوع بألوان مُشرقة. إنها امرأة سمراء، لها شامة على الصدغ وأخرى عند طرف الخد، شعرها مشدود برباط مطاطي. فستانها يصل بالكاد إلى الفخذين، ومن وقت لآخر تُبعد عنهما وشاح الفرو، فالجو حار. على الطاولة، وُضعت زجاجة شوييس صغيرة مفتوحة، وشفاطة بداخل كوب.

ثمة كتاب مفتوح أمامها. في حجم كُتُب الجيب، رفيع للغاية. إنها مستغرقة تمامًا في قراءته، لا يظهر عليها أي تبرم من الضجة المحيطة بها، من الضوضاء التي تسود الصالة، ببطء تُقلب الصفحة تلو الصفحة، بيد واحدة، فيما الأخرى تسند رأسها، والمرفق مُرتكز على الطاولة. إنها تقرأ رواية، ما في ذلك شك. أتوق لأن أرى غلافها. هل هي رواية كلاسيكية؟ أجرب بعض أسماء الكُتُب، بعض عناوين الكتب التي أعرفها، التي أحبها. لا، الأخرى أنه كتاب معاصر. عمل بوليسي؟ أم سيرة روائية؟ بلا، إنها قصة نسوية، هذا يُناسبها على نحو أفضل. بل إنه مجرد انحياز مُجحف. إن افتراضاتي لا تتوافق مع أي شيء. أراقب حركاتها. إذ ربما تغيّر وضعيتها، وتتوقف عن استكمال القراءة وتقلب الكتاب على الطاولة. إنها لا ترفع رأسها، لا يبدو عليها أنها تشعر بتحديقتي اللحوح. إلا لو كانت تتظاهر بتجاهلي حتى تُبقيني على مسافة منها، لكي تُحيط محاولاتي للاقتراب. يبدو أن ما يفصل بيننا أكثر من مجرد بضعة طاولات. لكن لا، إنها تُتابع القراءة بهدوء، سطرًا فسطرًا، تركيزها ليس خادعًا، هي في مكان آخر بالفعل، في قصتها التي لا مكان لي بداخلها، ولا لأحد من المحيطين بها.

تمد يدها الطليقة دون أن تحول عينيها عن الكتاب، كأنها قارئ آلي، تُقرّب الكوب ببطء، تمتص بالشفاطة حسوات صغيرة من الشوييس. تضع ساقًا فوق أخرى، فيظهر جزء أكبر من فخذها. تتخلى يدها عن الكوب، تمتد الآن أسفل الطاولة حتى تجذب فستانها بطريقة عفوية. تخلع فردةً من حذاءها، وتضع قدمها الحافية على الأرض. يا لطراوة البلاط. لو قامت فقط برفع رأسها، سيكون باستطاعتي أن ألتقط نظرتها. تُمسك بالكوب من جديد، وتمضغ الشفاطة، عاصّةً على شفّتها. إنها في الثامنة والعشرين من عمرها، في الثلاثين. ترتدي ساعة رجالية، وخاتمًا، وقرطًا كبيرًا مميّزًا.

ربما سيخيب أملي لو عرفتُ طبيعة ما تقرأه بهذا القدر من الاهتمام. أحد هذه الكتب الزائفة التي تتكوّم فوق طاولات المكتبات. لا، إنها أفضل من

ذلك. خوذة الدراجة النارية تأسرنني. لا تبدو منسجمةً معها. أحاول تخيلها فوق دراجة نارية ضخمة. أو فوق سكوتر. أو دراجة صغيرة. ما الذي تفعله بفستانها القصير أثناء الركوب؟ ليس ثمة دراجة مركونة هنا، على الرصيف. قد تكون فتاةً عابرةً ليس إلا. تنتظر شخصًا ما، هذا كل شيء. يزداد فضولي. أفضل في تحويل تركيزي عنها. أهو دليل عملي في المحاسبة، أم التسويق؟ لن تقرأ مثل هذه المواد، أخبر نفسي ذلك حتى أطمئن. إنه انحياز مُجحفٍ آخر. كيف لي أن أعرف؟ دليل إرشادي للأم الشابة؟ كتاب للطهي؟ إن تهويماتي تُخطئ مسارها بدرجة مؤسفة... كتاب عن المسرح، ربما. الأفضل أن يكون عن الشعر. أو كتاب إروتيك، لم لا؟ إنها تُحافظ على وضعه مبسوطًا تمامًا فوق الطاولة، بحذر شديد، كأنما تريد أن تحجبه. لن تذهب هنا وهناك بكتاب إروتيك. مُتعتة خلوية، حميمية، سرية. أخبريني لأي مؤلف تقرئين... قد أملك فكرة ما عن ميوله في الكتابة. تكفيني حقيقة أنها الآن تقرأ... بدلًا من أن تُطالع الهاتف المحمول.

كل ما عليّ أن أذهب إليها بكل صراحة، وأطلب منها أن تغفر لي هذا الطيش، وأسألها بكل بساطة عما تستغرق في قراءته، فيستحوذ على اهتمامها لهذه الدرجة. كيف ستستقبل هذا التصرف؟ هل عليّ أن أهين نفسي لتلقي خيبة أمل صغيرة؟ هل ثمة مخاطرة بأن أهز صورتني؟

إنها تحك ذراعها، ترفع حمالة فستانها، تدسُّ إصبعًا صغيرًا أعلى الصفحة حتى تقلبها بسرعة أكبر. كم من الوقت أمصت في هذا المكان؟ هل ستغلق الكتاب، وتنهض من مكانها؟ لا يبدو عليها التعجل في إنهاء جلستها. لا يمكن أن تكون في انتظار أحد، وإلا كانت ستنظر ناحية الباب من وقت لآخر، كانت سترفع رأسها ما إن يصل أحدهم ويدفع الباب. هل سأفوت هذه الفرصة؟ ها هي فردة الحذاء الأخرى تنزلق إلى الأرض.

أنظر إليها، بهذه الشامة على وجهها، كأنها جرح، يجعلها في غاية الإثارة. لديّ كل الوقت، مثلها تمامًا. لن أزعجها. نعم، إنها امرأة لها نفس طبيعتي. وهذا واحد من كُتبي تضعه بين يديها. فلأكمل الحلم، أو الوهم. اسمي مكتوب على الغلاف. تُرى أي كتاب تقرأ لي؟ أيًا كان، ليس مهمًا على الإطلاق، هي تعرفهم جميعًا. سأجد نفسي هناك، في كل مرة. إنها قارنتي. تلك التي لطالما أملت في لقائها، ذات يوم. في الشارع. في مترو الأنفاق. في مقهى. هي لا تعرف أنني هنا. ولا تعرف حتى من أكون. لم ترني من قبل. سوى أنني أملك كل أفكارها.

تركبتها تُكمل قراءتها بهدوء، حتى غادرت المقهى، كيما تحملني بعيدًا برفقتها.



## ديديه بلوند

كاتب وروائي فرنسي ولد في باريس عام 1953. يكتب القصة والمقال والرواية. حصل على عدة جوائز أدبية، منها: جائزة رينودو لأفضل مقال، جائزة رولان دو چوفينيل 2013، جائزة فانتوما، جائزة جورج براسان، وغيرها.

من أعماله:

- غاز في كل الطوابق - قصص «1985».
- اسم المجهول - رواية «1988».
- ممارسة الموت - رواية «2001».
- أشباح الأبكم - مقالات «2007».
- حب بلا كلام - قصص «2009»، صدرت ترجمتها إلى الإيطالية في «2018».
- مجهول نهر السين - رواية «2012» طبعت في عام 2013 تحت اسم المجهول وحازت على جائزة رولان دو چوفينيل من الأكاديمية الفرنسية في العام نفسه.
- الكومبارس - رواية «2018».
- كافيها... - 2019 وحصل على جائزة جورج براسان «2019».
- فستان أسود بديل «2020».

## المحتويات

9	باب دوّار
11	فاتورة
15	كوب قهوة طويل
17	كوب الماء
19	«وبالنسبة إليك، كيف يكون؟»
21	كرسي أم كنية؟
23	على الكاونتر
25	جرائد
28	التواليات
31	المفقودات
34	مرايا

35	ملاك عابر
37	بؤس
39	زيتون وفول سوداني
40	الطاولة المنزوية
43	حياة الآخرين
47	الفرقة الصغيرة
49	في مقهى روبيس، كما جرت العادة
51	موعد الشاي
54	بيرة، مع بطاطس مقلية
56	«موعد غرامي في ريف»
58	ميجريه، موديانو
61	فقدان القدرة على التخفي

- 64 على غير توقُّع
- 67 على المسرح، كافيهِ «مولر»
- 69 چيلبرت وڤيرونیکا، في مقهى «دو ماجو»
- 73 مسرح الجريمة
- 76 أوقات سعيدة
- 78 وحدة المكان
- 81 وحدة الزمن
- 83 «مقهى «باريس روما»، رواية»
- 87 أشباح وكومبارس
- 88 عابرات، في مقهى السيدات
- 91 فقدان تركيز، في مقهى «شارلوت»
- 97 حُب ما بعد الظهيرة، في مقهى الطيور

- 101 البرقوق، في مقهى «أثينا الجديدة»
- 104 ناديا، في مقهى «ويبلر»
- 109 فتيات مقهى «سان سوسي»
- 113 النائمة، في مقهى «قُبَّة دو قيليه»
- 115 م. ب. في مقهى فرانكير
- 118 لمبة القراءة، في مقهى الكلب المدخن
- 123 ديديه بلوند